رالف لنتون

الأصول الحضارية للشخصية

ترجمة:
الدكتور عبد الرحمن اللبان

مراجعة:
الدكتور محمود زايد

دار اليقظة العربية

الأصول الحضارية للشخصية

نُشِرَ بالاشتراك مع
مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر
بيروت - نيويورك

١٩٦٤

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت
مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق

This is an authorized translation of THE CULTURAL BACKGROUND OF PERSONALITY by Ralph Linton. Copyright, 1945, by D. Appleton - Century Company, Inc. Published by Appleton - Century - Crofts, Inc., New York.

المسهمون في هذا الكتاب

رالف لنتون

المؤلف: من مواليد فيلادلفيا، بنسلفانيا سنة ١٨٩٣ . بدأ دراسته الجامعية في كلية سوارثمور، واكمل تعليمه العالي في جامعات بنسلفانيا ، كولومبيا وهارفارد التي حصل منها على شهادة الدكتوراه سنة ١٩٣٥ . وقد كان اهتمام المؤلف المبكر بدراسة علم الارخولوجيا (Archaeology) حافزاً له للسفر في رحلات استكشافية الى غواتيمالا ، والاقسام الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة . ومما هو جدير بالذكر ان احدى رحلاته الاستكشافية الكثيرة التي قام بها عام ١٩٢٠ شكلت نقطة تحول بارزة في حياته، حيث أثارت فيه اهتماماً بالغاً لدراسة علم « الانثروبولوجيا » .

وقد كانت حياته العملية والاكاديمية غنية معطاء، ففي سنة ١٩٢٢ اصبح على صلة بما كان يسمى «متحف التاريخ الطبيعي » في شيكاغو الذي اوفده سنة ١٩٢٥ في رحلة استكشافية الى مدغشقر وافريقيا الشرقية . وعند عودته درّس اولاً في جامعة وسكونسن ، ثم انتقل الى جامعة كولومبيا ، وفي سنة ١٩٤٦ عيّن استاذاً لعلم « الانثروبولوجيا » في جامعة يال .

وقد كان المؤلف عضواً في العديد من الجمعيات والمؤسسات العلمية ، وعند وفاته سنة ١٩٥٣ كان يعتبر احد اعاظم علماء « الانثروبولوجيا » في العالم .

الدكتور عبد الرحمن اللبان

المترجم : من مواليد بيروت سنة ١٩٢٤ . حصل على شهادة الطب من الجامعة الامريكية في بيروت سنة ١٩٤٨ ، كما حصل في سنة ١٩٥٢ على شهادة تخصصية في طب النفس والامراض العصبية من جامعة لندن .

عمل رئيساً لقسم الامراض العقلية والعصبية في الكويت بين سنتي ١٩٥٣ و ١٩٥٤ ، وبعدها انتدبته منظمة الصحة العالمية خبيراً للصحة العقلية في الاردن حتى سنة ١٩٥٩ .

وهو الآن رئيس لاطباء المستشفى الاسلامي للامراض العقلية والعصبية والنفسية ، واختصاصي الامراض العقلية والعصبية والنفسية في وزارة الصحة العامة ، كما انه عضو في المجلس الوطني للبحوث العلمية في لبنان.

الدكتور محمود زايد

المراجع : الاستاذ المشارك للتاريخ في الجامعة الامريكية في بيروت .





المقدّمة

ان احدث التطورات في محاولة الانسان الطويلة لمعرفة نفسه هي الدراسة المنهجية لأوجه الترابط بين الفرد والمجتمع والحضارة. وتقع هذه الدراسة عند نقطة التقاء ثلاثة من الحقول العلمية التي نشأت منذ زمن بعيد، وهي علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الانسان (Anthropology) . ولقد اختار كل علم من هذه العلوم سلسلة خاصة من الظواهر (Phenomena) ، واستحدث وسائله الخاصة به، وباستطاعته ان يقدم لنا سجلاً رائعاً بمنجزاته . ومع ذلك، يزداد وضوحاً يوماً بعد يوم، وجود مشكلات معينة لا يمكن حلها بواسطة علم واحد فقط من هذه العلوم . ولقد استعملنا التعبير – مشكلات معينة – عن قصد، اذ ان كل علم من هذه العلوم يشمل حقلاً واسعاً ويعالج مسائل مختلفة الانواع والاهمية . ومن الممكن معالجة بعض هذه المشكلات معالجة ناجحة كل النجاح دون اللجوء الى اية معونة عبر الحدود القائمة بين هذه العلوم . وعلى هذا يمكن لعالم النفس الاختباري، الذي يختبر الحيوانات، ان يمضي في عمله دون اي رجوع تقريباً الى اكتشافات علم الاجتماع وعلم الانسان . اذ لا تتجلى اهمية هذه الاكتشافات الا عندما يحاول استخدام اكتشافاته الخاصة في

تفهم السلوك البشري . كما ان المشتغل في الخدمات الاجتماعية، الذي يواجه مشكلات ملموسة يجب حلها ضمن اطار مجتمعنا وحضارتنا الخاصة، لا يحتاج الا لمساعدة قليلة جداً من عـــالم الانسان . ولكنه اخذ في الوقت نفسه يعتمد على عالم النفس، وتشير الدلائل الى انه سوف يفعل ذلك اكثر فاكثر كلما تقدم به الزمن . واخـــيراً، باستطاعة عالم الآثار او عالم خصائص الانسان الجسمانية باعتمادهما على سعة حقل دراسات الانسان وتشعبه، ان يجيبا على كثير من الاسئلة المحددة من غير ان يستشيرا عالم النفس او عالم الاجتماع . فالمشتغلون في حقول علم النفس الخاص بدراسة الشخصية والبناء الاجتماعي، وعلم الانسان الحضاري هم الذين يجدون انفسهم وقد جمعتهم ميول مشتركة .

وقد بدأ التعاون بين مثل هؤلاء العاملين يتمخض عن علم جديد لا يبحث الا في العوامل الدافعة في السلوك البشري . ولا يزال هذا العلم في المراحل الاولى من نموه، الا انه يتميز باقبال طلابه على متابعة المشكلات دون الالتفات الى الحدود القائمة بين حقول العلم المختلفة وباستعمال اي وقائع او اساليب تبدو ملائمة ومناسبة للموضوع قيد البحث . والذين يعملون في هذا الميدان قد نالوا دراستهم وتدريبهم في علم واحد فقط من تلك العلوم المقررة، وغالباً ما يجدون صعوبة في معالجة المواد التي يقدمها الآخرون. وهم يميلون ايضاً الى الانتباه في الغالب الى المشكلات التي تنشأ ضمن اختصاصهم الاصلي . ولذا فان امثالي من الباحثين

الذين اجتذبهم هذا الميدان الجديد من علم الانسان اشد ادراكاً لمقاصد الاتجاه الجديد ولاهميته في تفهم المشكلات الحضارية . فلقد بلغت دراسات علماء الانسان للعملية الحضارية وللتكامل الحضاري (Culture Integration) في الوقت الراهن درجة يحتم تجاوزها استخدام النتائج التي وصل اليها علم النفس الخاص بدراسة الشخصية (Personality Psychology) . فقد اسهم في بناء كل حضارة وفي استمرارها وتعديلها مجتمع خاص من المجتمعات، ولكن كل مجتمع هو في الاصل مجموعة من الافراد، وهؤلاء هم الذين يؤلفون العنصر المجهول (x) في كل معادلة حضارية، ذلك العنصر الذي لا يمكن كشفه بواسطة وسائل علم الانسان وحدها . وبالرغم من ان علماء الانسان قد اهملوا منذ مدة طويلة نظرية « الرجل العظيم » التي نادى بها المؤرخون الأول ، فهم يدركون انه لا اختراعات بدون مخترعين . كما يعلمون ايضاً انه من المستحيل حصول تحويرات وتبديلات ثابتة دائمة في حضارة ما بدون ان يقبل افراد المجتمع آراء وافكاراً جديدة . والخطوة التالية هي اكتشاف ما الذي يجعل الانسان مخترعاً لا ناقلاً للحضارة فحسب، ولماذا يقبل اعضاء مجتمع من المجتمعات بدعة جديدة او يرفضون اخرى . فليس تطبيق العبارة الملائمة « مصادفة تاريخية » (Historic Accident) على نشوء الحضارة الا ستاراً للجهل وتعبيراً سحرياً لتسكين الفضول فحسب. وثمة عدد كبير من القضايا التي يتعذر فيها ربط اعمال المخترع بالحاجات الظاهرة البينة لمجتمعه . كما انه لا يمكن

في كثير من الاحيان تفسير قبول المجتمع لشيء جديد او رفضه له بواسطة المفهوم الآلي البسيط لعملية التكامل الحضاري (Culture Integration) . علينا ان نعود الى علم النفس حتى يتسنى لنا فهم هذه الاشياء . ويبدو انه من المحتمل الى حد كبير ان يكون لظاهرتي القبول او الرفض علاقة ما بملاءمة الشيء الجديد لنموذج الشخصية (Personality Norm) المقبول لدى افراد المجتمع. ولقد ساعد استخدامُ وسائل علم النفس الشخصاني في دراسة المجتمعات والحضارات الباحثين على ملاحظة الفوارق بين هذه النماذج وعلى اكتساب شيء من عمق الادراك للعوامل المسببة لهذه الفوارق . وقد يتضح لنا، عندما تستكمل هذه الابحاث، ان الاتجاهات الخاصة التي اتخذتها مختلف الحضارات خلال تطورها لم تكن وليدة الصدفة .

اذا كان عالم الانسان قادراً على الافادة من التعاون مع عالم النفس الذي يدرس الشخصية فبامكانه على الاقل ان يقـــدم له مساعدة بديلة عادلة . فأخطر المشكلات الاساسية التي تواجه الذين يتصدون لدراسة الشخصية في الوقت الحاضر هي مدى تأثير عوامل البيئة في المستويات العميقة للشخصية . ولا يمكن حل هذه المشكلة بوسائل المختبر، لانه من المستحيل خلق بيئة خاصة يمكن السيطرة عليها سيطرة كاملة وتكون شبيهة بالاشكال الاجتماعية الحضارية التي ينمو فيها الانسان، كما انه لا يمكن لاحد ان يقدر تأثير العوامل البيئية العديدة باعتماده الملاحظات المستمدة

من مجتمعنا الخاص وحضارتنا الخاصة . وان كثيراً من العوامل التي تفعل فعلها في هذا المضمار مألوفة الى حد لا تدخل معه في حسابات الباحثين . والطريقة الوحيدة التي يستطيع عالم النفس الشخصاني بواسطتها ان يحصل على ما يحتاج اليه من المعطيات المقارنة هي دراسة الافراد الذين نشأوا في مجتمعات وحضارات مختلفة . وقلما يجد الفرصة المناسبة في الاوضاع الراهنة لاجراء مثل هذه الدراسات مباشرة، ولكنه يستطيع الحصول على جزء كبير من المعلومات التي يحتاجها من المواد التي جمعها او يمكن لعلماء الانسان ان يجمعوها . على ان المجتمعات المعروفة « بالبدائية »، والتي جعلها علماء الانسان ميداناً خاصاً لابحاثهم، حافلة بانواع مختلفة من البيئات الاجتماعية الحضارية تكفي لكثرتها للاجابة على غالبية اسئلة عالم النفس . وبالاضافة الى ذلك، استحدث علماء الانسان من دراساتهم للحضارة اساليب فعالة لاختصار هذه المعلومات عن البيئة وايجازها وتعيين التجارب التي تتعرض لها اكثرية افراد اي مجتمع خلال حياتهم . ولسوء الحظ ما زالت المعلومات التي يمكن لعلماء الانسان ان يقدموها عن شخصيات الافراد الذين نشأوا في هذه البيئات المختلفة غير كافية . على ان القصور في هذا الشأن ناجم في الاكثر عن عدم القيام بالعمل لا عن القيام به على وجه خاطىء . فهم غالباً ما يقصرون في تسجيل بعض المعطيات التي قد تكون مهمة جداً لعالم النفس لمجرد انهم لا يدركون اهميتها .

وبما ان هذا الكتاب يعالج في الاساس مشكلات هي موضع اهتمام عالم النفس وعالم الانسان بالدرجة الاولى، فمن الممكن لنا ان نمر مر الكرام بدور علم الاجتماع في نمو هذا العلم الجديد الذي يبحث في السلوك البشري . ويكفي ان نقول ان العلاقات القائمة بين الافراد ، والتي لها اعظم الاهمية في تكوين الشخصية، لا يمكن فهمها الا بالرجوع الى المراكز التي يحتلها الافراد المعنيون في النظام البنائي لمجتمعهم . ومن المستحيل كذلك ان نفهم او نحدد الحقوق والواجبات التي تعينها الحضارة للفرد بدون اخذ هذا النظام بعين الاعتبار . وبالعكس نجد ان بنية اي مجتمع انما هي ذاتها جزء من حضارة ذلك المجتمع، ولا يمكن فهم الكثير من خصائصها الا بالرجوع الى تنظيم تلك الحضارة كله . ولا تقل مكاسب علم الاجتماع واسهاماته، خلال عملية التعاون بين العلوم الثلاثة، عن مكاسب العلمين الآخرين واسهاماتهما .

يبدو ان اهم العقبات التي تقف في وجه التعاون المثمر بين العلوم الثلاثة في الوقت الحاضر هي اثنتان : اولاً — الجهل بمواد الدراسات الاخرى الذي ينشأ بشكل طبيعي لدى الذين يركزون دراستهم في علم واحد فقط . ويمكن التغلب على هذه العقبة الى حد كبير بالتعاون بين الافراد الذين درسوا علوماً مختلفة . وفي حين ان اكثر انواع التعاون فعالية هو الذي يمكن بلوغه بجمع علمين داخل جمجمة واحدة، فان لاصحاب الاختصاص المقدرة على مساعدة بعضهم البعض في حل المسائل المشتركة اذا كان

باستطاعتهم الاتفاق على ميدان مشترك . ويؤدي هذا بنا توا الى العقبة الثانية، وهي الافتقار الى اصطلاحات فنية ثابتة مشتركة بين العلوم الثلاثة . وحتى لو توفرت احسن النوايا في العالم فان الاختصاصي في علم من العلوم كثيراً ما يجد نفسه عاجزاً عن فهم ما يحاول اختصاصي في علم آخر قوله . ومما يعقد القضية ان الكثير من المفردات الفنية التي يستعملها كل علم من العلوم الثلاثة المعنية ما زالت تستعمل بمدلولات مختلفة حتى ضمن العلم ذاته . وعلى وجه العموم فان لهذه الاصطلاحات معنى اساسياً يقبله كل العاملين في ذلك العلم ، وطائفة كبيرة من المعاني الثانوية التي لا تظفر بمثل ذلك القبول العام الشامل . وبما ان فهم المصطلحات والمفهومات التي ترد في العلوم المختلفة فهماً واضحاً هو من الامور الضرورية جداً للتعاون، فلقد خصص جزء كبير من هذا الكتاب للقيام بمحاولة لتحديد تلك المصطلحات التي يكثر استعمالها . ولقد اجتهدت في محاولتي هذه ان اتبع مبدأ الاكثريةالديمقراطي، بانياً تحديداتي وتفسيراتي على تلك المعاني التي يبدو انها موضع اجماع العلماء، متجاهلاً المعاني التي تؤيدها الاقليات . وعليه فان مثل هذه التفسيرات سوف لا تمكن الذين تدربوا في علم واحد من العلوم ان يفهموا كل ما قد يتحدث عنه جميع المختصين بعلم آخر . ومع ذلك فان غاية المحاولة هي وضع « مصطلح مشترك » (Lingua Franca) او لغة عملية يمكن ان تصبح اساساً لتبادل الآراء البسيطة والمعلومات الحقيقية في العلوم الثلاثة . فنجاحي في ذلك، او اخفاقي، امر لا يستطيع تقريره الا الزمن .



الفصل الأول

الفرد والحضارة والمجتمع



الفرد والحضارة والمجتمع

ان دراسة الفرد والحضارة والمجتمع وما بينها من ترابط متنوع قد جاء استجابة للموعظة القديمة التي تقول: «ايها الانسان، اعرف نفسك» . ولقد تم الاعتراف ضمناً بأكثر الظواهر التي تعالجها هذه الدراسة منذ زمن بعيد جداً، الا ان البحث فيها قد تُرك في الاغلب للفلاسفة واللاهوتيين . ولم تدخل في نطاق البحوث العلمية الا منذ جيلين او ثلاثة فحسب . وما تزال مثل هذه الابحاث حتى يومنا هذا تنطوي على مصاعب جمة . فبالرغم من ان الاقبال يتزايد على الدراسات العلمية فان عدداً كبيراً من الاساليب الفنية العلمية المعترف بها لا يمكن استخدامها في درس مثل هذه الظواهر . وهكذا نجد ان طبيعة الموضوع ذاتها تحول الى حد كبير دون استخدام الوسائل الاختبارية . فالصفات الاصيلة بالحضارات وبالمجتمعات هي من النوع الذي يجعل من المستحيل استحضارها كما نشاء او دراستها في اوضاع وحالات محددة . ومع ان الفرد اكثر مطاوعة للوسائل الاختبارية فانه لا يستجيب لكثير من غاياتها . بل ان الطفل نفسه لا يمثل امام الباحث الا وقد اكتسب نمطاً متميزاً من الخبرة والملكات البيولوجية الاصيلة المحددة . وهذا كله يواجه الباحث بالعامل

المجهول (x) في كل المعادلات ـ العامل الذي لا يمكن حله وسبر غوره باي وسيلة من وسائلنا الحاضرة . وربما كان ممكناً ، نظرياً ، معالجة العوامل الفطرية بواسطة السيطرة على التناسل بحيث ننشىء سلالات بشرية تكاد ترث صفات واحدة . ولو تيسر لنا هذا ، لأمكن التعرف الى انواع الشخصية التي تولدها العوامل البيئية (Environmental) المختلفة التي يوجدها الباحث . وعلى كل حال فان مثل هذا النوع من حيوانات المختـــبر البشرية بعيد التحقيق وتحقيقه امر يثير الحزن لمخالفته كل القيم التي تعلمنا الايمان بها . بل ان الخطوة الاولى الخاصة بانتاج سلالات بشرية نقية ، يجب الا تتم الا بعد ان يحدث تطور غير محتمل وهو السماح بالتزاوج بين الاقارب المحرّمين .

وليست هـــذه التقييدات للاسلوب الاختباري بالصعوبات الوحيدة التي تواجـــه الباحث . فالشخصيات والحضارات والمجتمعات كلها اشكال يتقدم فيها النسق والتنظيم الكلي على العناصر التي تدخل في تكوينها . ولقد اتجه العلم حتى وقت قريب جداً الى التحليل الدقيق المتزايد لهـــذه الاشكال والى دراسة الجزء لا الكل . ولكننا ما نزال ، حتى في يومنا هذا ، وفي الوقت الذي نعترف فيه باهمية الشكل ، بحاجة ماسة الى الوسائل اللازمة لمعالجتها. واخيراً فان حاجتنا الملحة الى وحدات قياسية اختبارية دقيقة لقياس اكثر المظاهر الحضارية والاجتماعية تقف حجر عثرة في سبيلنا . والى ان يصبح لدينا مثـــل هذه

الوحدات القياسية ، سيظل استعمال الوسائل الحسابية التي برهنت عن قيمتها وفائدتها في ميادين البحث الاخرى امراً متعذراً .

كان اعظم تقدم تقني في نطاق الميدان العام الذي نعالجه من نصيب الدراسات النفسية . فلقد تمّ استحداث سلسلة طويلة من الاختبارات لاكثرها ، على ما يبدو ، نتائج صحيحة . لكن فائدة غالبية هذه الاختبارات قد اقتصرت على كشف نواحي معينة لمحتويات الشخصية دون اشكالها المتكاملة . وبالاستناد الى هذه النتائج يمكننا تصنيف سلسلة من الافراد على اساس صفة واحدة فقط كالذكاء مثلاً ، ولكن هذه السلسلة تخرج عن ذلك التصنيف اذا عمدنا الى ترتيب الافراد انفسهم حسب صفة اخرى هي روح العدوان مثلاً . على ان احدث التطورات في هذا الميدان واكثرها خيراً في المستقبل ، هي الاختبارات التي استهدفت دراسة شكل الشخصية المتكامل كله . ولا زالت هذه الاختبارات في دور الطفولة . الا ان اختبار رورشاخ (Korschach) واختبار موري (Murray) ، المبنيين على استيعاب الموضوع المصور ، قد برهنا فعلاً على اهميتها للحاضر والمستقبل .

وحتى عندما تبلغ الاختبارات النظرية اكبر درجة من الكمال، فانها لن تمدنا بحلول لبعض المشكلات المهمة التي تعترض دراسة الشخصية . ولا يمكن لاي اختبار كان ان يلقي ضوءاً على

الشخصية الا في الحالة التي تكون عليها هذه الشخصية لدى اجراء ذلك الاختبار . فالشخصية كلٌّ دينامي متصل ، وبالرغم من ان اكتشاف محتوياتها وتنظيمها وطريقة عملها في نقطة محدودة من الزمن من الامور المهمة ، الا ان اكتشاف العمليات التي تتطور بواسطتها وتنمو وتتغير امر اكثر اهمية . ولا تستطيع الاختبارات النظرية ان تقدم لنا بخصوص هذه العمليات ، الا جداول من الوقائع المركزة والمحدودة على طول الخط الذي تسير عليه حياة الفرد . ولا يوجد لدينا الآن الا عدد ضئيل من مثل هذه السجلات . والى ان تكثر فان خير نهج لمعالجة مشكلات تطور الشخصية هو بالضرورة دراسة سير الاشخاص التي يمكن الحصول عليها من الافراد انفسهم ومقارنتها . ولقد اجرى علماء تحليل النفس مثل هذا العمل ، ولكن ما يزال هنالك ، حتى في هذا المضمار، نقص واضح في استحداث الاساليب الموضوعية . فبالرغم من الصدق الظاهر الذي تتصف به كثير من الاستنتاجات في تحليل النفس ، فان معظم هذه الاستنتاجات قد تم الوصول اليها على اساس من الاحكام الذاتية الخاصة ، وهي لا تخضع لمثل البراهين التي يتطلبها العاملون في العلوم الدقيقة .

وقد نتغلب على معظم ما عددناه من صعوبات مع الزمن . ولكن الى ان يتم استحداث اساليب جديدة تصلح لدراسات المزايا الخاصة للشخصية والحضارة والمجتمع ، فان على الباحثين ان يصلوا الى استنتاجاتهم عن طريق المشاهدة المجردة ومقارنة

المواد التي بين ايديهم. على ان طريقة المعالجة هذه اقرب الى علماء التاريخ الطبيعي القدماء منها الى طريقة الطالب الحديث الذي يدرس سلوك الحيوان . ومع ذلك يجب ألا ننسى انه لولا تلك التوجيهات التي صدرت عن علمـــاء التاريخ الطبيعي لما امكن حدوث كثير من التطورات المتأخرة . ولقد استحدث الباحثون في السلوك البشري — ان كان على مستوى الفرد ام على المستوى الاجتماعي — أساليب وصفية صالحة وفهماً واسعاً للظواهر التي عليهم ان يعالجوها . ولقد نشأ لديهم ادراك متزايد للتعقيد الذي تتصف به هذه المادة وللتشابك والترابط الوظيفي بـــين الفرد والحضارة والمجتمع . ولقد جرى الناس على دراسة كل من هذه المواضيع على حدة اتباعاً منهم لسنة البحث التجزيئي . فاصبح الفرد موضوعاً لعلم النفس ، والمجتمع لعلم الاجتماع ، والحضارة لعلم الانسان الحضاري ، بالرغم من ان العلمين الاخيرين قد اتجها دائماً الى دراسة امور واحدة . وهكذا اخذ يتضح الآن ان ترابط الفرد والمجتمع والحضارة شديد وان التفاعـل بينها مستمر الى درجة ان الباحث الذي يحاول ان يعنى بموضوع واحد منها دون الرجوع الى الموضوعين الآخرين سرعان ما يجد نفسه امام حاجز لا يخترق . لكن ما يزال هنالك مكان لاصحاب الاختصاص ، وما تزال هنالك ايضاً مصالح ثابتة تفيد من ابقاء هذه المناهج العلمية . وعلى كل حال يمكننا القول في اطمئنان بان السنين القليلة القادمة ستشهد ظهور علم خاص بالسلوك البشري يجمع نتائج علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الانسان . وربما زيد بمرور الوقت علم

الحياة على هذا الثالوث المذكور ، ولكن ادراك وفهم العلاقة بين الظواهر البيولوجية (الحياتية) والظواهر النفسية والاجتماعية والحضارية ما زال من الضعف بحيث يبدو اسلم لنا ان نتجنبه ونهمله في الوقت الحاضر .

وبالرغم من الترابط الوظيفي بين الفرد والمجتمع والحضارة ، فمن الممكن، بل من الواجب، التفريق بين هذه الوحدات الثلاث من اجل غايات توضيحية . ولئن ندر ان يكون للفرد الواحد اهمية عظيمة في بقاء المجتمع الذي ينتمي اليه او الحضارة التي يشارك فيها، وفي سيرهما ، فان الفرد وحاجاته وامكاناته كلها، هي اساس لجميع الظواهر الاجتماعية والحضارية . فما المجتمعات الا جماعات منظمة من الافراد، وما الحضارات ، في الاساس ، باكثر من الاستجابات المتكررة لافراد المجتمع. ولهذا فان الفرد هو النقطة المنطقية لانطلاق اي بحث في اي تشكيل للافراد .

يمكننا ان نفترض ان حاجات الفرد هي التي تزوده بدوافع السلوك ، التي تتحمل لهذا السبب مسئولية تسيير المجتمع والحضارة ، ويبدو ان حاجات البشر اكثر عدداً وتنوعاً من حاجات اي من الانواع الاخرى . فبالاضافة الى تلك التي يمكن ربط مصدرها مباشرة بالتوتر الفيسيولوجي كالحاجة الى الطعام، والنوم، والهرب من الالم، والسعي وراء اشباع الرغبة الجنسية ، فللانسان عدد كبير من الحاجات الاخرى التي لا يمكن التدليل

بوضوح على علاقتها بمثل هذا التوتر . ويمكننا تسميتها بالحاجات النفسية (Psychic Needs) لعدم وجود تعبير افضل . وعلى الرغم من اننا ندعو حاجات الفرد التي تفرضها الوظائف الفيسيولوجية ، بالحاجات الاولية، والحاجات النفسية بالحاجات الثانوية ، فان المبرر الاساسي لمثل هذا التمييز هو الدخول الى الموضوع من زاوية التناسل . فمما لا شك فيه ان الحاجات التي تقررها فيسيولوجية الانسان هي اول الحاجات ظهوراً في مجرى التطور العام للكائنات الحية ، واول الحاجات التي تظهر في دورة حياة الفرد . على اننا اذا نظرنا اليها، من حيث انها دوافع للسلوك لدى الشخص البالغ ، فان الحاجات الجسدية والنفسية تبدو لنا على مستوى واحد تقريباً . وقد نجد كفة الحاجات الجسدية راجحة في اي نزاع طويل بين هذين الصنفين من الحاجات ، ولكن انتصار حاجات الجسد لا يمكن ان يكون مؤكداً . فالمضربون عن الطعام يثابرون على اضرابهم الى النهاية، وفي اوروبا الآن ، نجد الرجال يفضلون الموت تحت التعذيب على افشاء سر صديق او حتى على التخلي عن وجهة نظر معينة . واما في مقتضيات الحياة اليومية العادية فاننا نلاحظ ان الحاجات النفسية تتقدم على الحاجات الجسدية . وكل واحد منا يعرف المثل القائل: « على المرء ان يتعذب ليبدو جميلاً » .

وبالرغم من اهمية الحاجات النفسية كدوافع للسلوك الا اننا لا نعرف حتى الآن الا القليل عنها . فنشأتها غامضة مبهمة ، ولم

يتم وصفها او تصنيفها بعد على نحو صالح مفيد. فالحالات النفسية امور دقيقة من الصعب جـــداً معالجتها بالوسائل الموضوعية المضبوطة. ولا يمكن التعرف الى طبيعة او حتى وجود الحاجات النفسية الا بواسطة السلوك الذي ينتج عنها . وهذا السلوك هو من التنوع بحيث يصبح رده الى دوافع صغيرة عامة او الى عدد كبير من الدوافع المحددة، مسألة اختيار على الاكثر. فاذا اتبعنا الوسيلة الثانية فقد تتزايد الحاجات النفسية الى ما لا نهاية، وبهذا نخسر كل ما في نظام التصنيف من قيم اصيلة . ثم اننا خـلال تصنيفنا للحاجات النفسية تصنيفاً كاملاً نواجه صعوبة اخرى ناشئة عن حقيقة انه يندر ان تكون اية حاجة انسانية ، نفسية كانت او جسدية ، على علاقة واضحة بأي نمط ظاهر من انماط السلوك . فعندما يقوم الانسان بعمل ما ، وبخاصة اذا صدر هذا العمل طبقاً لنمط حضاري مقرر، فان هذا العمل يسهم عادة في اشباع عدد من الحاجات المختلفة في وقت واحد . وهكذا فاننا ، عندما نرتدي الثياب فانما نفعل ذلك لحماية جسدنا من جهة ، ولارضاء غرورنا او على الاقل لتجنب الانتقاد من جهة اخرى. واذا كانت هذه هي ظروفنا فمن الخير كما يبدو الا نحاول وضع تصنيف خاص معـين للحاجات النفسية ، وان نكتفي ببحث مقتضب موجز لبعض الحاجات التي تبـدو لنا اكثر انتشاراً واشد اهمية لتفهم السلوك البشري من غيرها .

ربما كانت الاستجابة العاطفية مـن الافراد الآخرين ابرز

الحاجات النفسية واكثرها عملاً . وقد استخدمنا اصطلاح « الاستجابة العاطفية » (Emotional Response) عن قصد لان اثارة الاستجابة السلوكية المجردة من الغير قد يقصّر عن اشباع هذه الحاجة . وعلى هذا يمكن لشخص في مدينة حديثة ان يتعاطى مع عدد كبير من الافراد طبقاً لاساليب حضارية شكلية مقررة وان يحصل منهم على الخدمات الضرورية دون اثارة اي تجاوب عاطفي . ففي مثل هذه الحالات تظل حاجته النفسية الى التجاوب غير مشبعة ويعاني شعوراً بالوحدة والانعزال يشتد كما لو لم يكن حوله احد على الاطلاق . والواقع ان هذه التجربة ادعى الى الشعور بالخيبة من الوحدة الاصلية ذاتها . فنحن جميعاً ندرك حقيقة الشعور بالوحدة ونحن وسط الناس ، وهذه الحاجة الى الاستجابة ، وبخاصة الاستجابة المرضية ، هي التي تمد الفرد بالحافز الرئيسي للسلوك على نحو اجتماعي مقبول ، فالناس يأخذون بعادات مجتمعاتهم لانهم يرجون الاستحسان بقدر ما يخافون العقاب .

ان هذه الحاجة للتجاوب العاطفي مع الآخرين عامة وقوية الى درجة ان كثيراً من علماء الاجتماع قد اعتبروها غريزية ، بمعنى انها فطرية في الانسان ، ولربما تعذر علينا تقرير ما اذا كانت غريزية حقاً ، ام انها حصيلة التكيّف (Conditioning) ، فالفرد خلال طفولته يعيش عالة الى حد لا يستطيع معه ان يبقى حياً اذا لم يثر في اهله الاستجابة اللازمة . ولذلك ترتبط

هذه الاستجابة حتى باشباع اكثر الحاجات بساطة ، ولربما ظلت الرغبة في الحصول على الاستجابة قائمة حتى بعد ان يكون الفرد قد اتخذ اساليب لسد حاجاته بدون مساعدة . ومن ناحية اخرى هنالك ما يدل على ان الصغار ، حتى الاطفال الرضع منهم ، يحتاجون الى شيء من التجاوب العاطفي لتأمين العافية والرفاهية . ويبدو ان عدم توفره هو التفسير الوحيد لارتفاع عدد الوفيات بين الاطفال الصغار حتى في اصلح المؤسسات من الناحيتين الادارية والصحية ، بل ان ذلك العدد هو أعلى بكثير منه في الظروف البيتية السيئة صحياً . وقد وصف احد البارزين في التحليل النفسي هذا الوضع في محاضراته بدقة وايجاز فقال : « ان الاطفال الذين لا يجدون الحب ، لا يستطيعون الحياة * » وبما ان كل الافراد يمرون بتجارب الطفولة فان مسألة تقرير ما اذا كانت هذه الحاجة فطرية او مكتسبة هي في الواقع مسألة نظرية . لانها في كلتا الحالتين موجودة عند الجميع .

وهناك حاجة نفسية عامة ثانية وهي الحاجة الى طمأنينة (Security) من النوع الطويل الامد . فان قدرة الانسان على تصور الزمن خيطاً متصلاً يتجاوز الماضي والحاضر – الى المستقبل – تجعل اشباع حاجاتنا في الوقت الحاضر غير مجد ما لم يؤمن هذا الاشباع في المستقبل . فنحن في حاجة دائمة للمزيد

---

* الدكتور ساندور فرنتشي كما اوردها الدكتور ابرام كاردينر .

من الاطمئنان ، رغم ان الادراك الزمني ذاته الذي يُمكّننا من الشعور بالقلق لما سيحدث ، يمكننا ايضاً من تأجيل اشباع الحاجات الحاضرة وتحمل المزعجات الراهنة أملاً في خير مؤجل. وتنعكس هذه الحاجة الى الطمأنينة والتأكد في اشكال لا تحصى من السلوك الحضاري الرتيب . فهي تقود الصانع البدائي الى مزج السحر باساليبه التقنية، وتقود الانسان في مختلف مستويات الحضارة الى تخيل الجنات حيث ينال اجزل الثواب على سلوكه الحالي الرفيع . وبالنظر الى معرفتنا الحالية اليسيرة بالعمليات النفسية ، فانه من العبث ، على ما يبدو ، التكهن باصول هذه الحاجة. وحسبنا ان نعترف باهميتها كدافع للسلوك في المستقبل.

اما الحاجة النفسية الثالثة والاخيرة التي تستحق الذكر في هذا المقام فهي الحاجة الى الجديد من التجارب . ويحتمل ان تكون اقل الزاماً من التجارب الآنفة الذكر . اذ يبدو على الاقل انها نادراً ما تظهر الا بعد ان تكون الحاجات الاخرى قد اشبعت . وتتجلى في الظاهرة المألوفة والمعروفة بالملل ، وتؤدي الى مختلف انواع السلوك التجريبي . وكما هي الحال في الحاجة الى الاستجابة ، تفسر هذه الحاجة الاخرى على اساس التكيف المبكر . فالفرد خلال طفولته الباكرة يمارس باستمرار تجارب جديدة ، وبما ان معظم هذه التجارب يجلب له اللذة ، فمن المتوقع ان تقترن الجدة باللذة قبل حصولها . ومن جهة اخرى قد تكون جذور هذه الحاجة اشد غوراً . اذ تتجلى النزعة الى

التجربة حتى في الاطفال الصغار ، وقد سبق لبافلوف (Pavlov) ان ميز ما اسماه بانعكاس الاستكشاف (Exploratory Reflex) عند الحيوان .

ان دور الحاجات الجسدية والنفسية في السلوك البشري هو على وجه التعيين دور المسببات الاولية ، فبدون الدافع الذي يتأتى منها يظل المرء خامداً . فهو يتصرف كي يتخلص من التوترات ، وهي حقيقة تنطبق على اعماله الظاهرة كما تنطبق على بعض اعماله المستترة (Covert) كالتعلم والتفكير . وعلى كل حال فان الاشكال التي يتخذها السلوك لا يمكن قط تفسيرها على ضوء الحاجات الدافعة وحدها ، ذلك ان هذه الحاجات ليست سوى قوى تتجلى بصورة يدخل في تكوينها عدد كبير من العوامل الاخرى . ولا بد للسلوك الذي يكفي لسد اية حاجة او مجموعة من الحاجات ، ان ينظم دائماً حسب الوسط الذي ينبغي للمرء ان يعمل فيه . ويضم هذا الوسط عوامل المحيط والتجربة معاً . وهكذا فان السلوك الذي يكفل سد الحاجة الى الطعام يختلف كلياً في مدينة حديثة عنه في البرية . اضف الى ذلك ان الاساليب التي يلجأ اليها المرء ويستخدمها في كل حالة تختلف باختلاف تجاربه السابقة ، ففي البرية يلجأ المرء الذي اعتاد الصيد الى الحصول على الطعام بوسيلة تختلف تماماً عن تلك التي يتبعها من لم يعتد الصيد .

اذا لم يكن بالامكان تفسير اشكال السلوك البشري على

اساس حاجات الفرد ، فانه من المستحيل ايضاً تفسيرها على اساس امكانات العمل الفطرية . فان هذه الامكانات تقرر الحد الاقصى للاشكال التي يمكن للسلوك ان يتخذها ، ولكنها تترك مجالاً واسعاً جداً لاحتمالات كثيرة . ويخضع اختيار اي احتمال منها بدوره الى عدة عوامل اخرى . ويتقرر سلوك المرء الفوري (Immediately) بواسطة تجاربه الخاصة ، وهـــذه بدورها تكتسب من اتصالاته ببيئته . ومن ثمّ فان فهم هذه البيئة امر لا غنى عنه في تفهم كل من الشخصيات الفردية والشخصية بوجه عـام .

وبالرغم من انه لا يوجد اثنان ، ولا حتى التوأمان المتماثلان اللذان ينشآن في عائلة واحدة، لهما بيئتان متماثلتان تماماً ، فان لكل البيئات البشرية مع ذلك خصائص مشتركة معينة . فنحن نميل عادة الى التفكير في البيئة على اساس الظواهر الطبيعية كالحرارة والحقول او المواد الغذائية المتوفرة - وهي عوامل لا بد وان تختلف باختلاف الزمان والمكان. وبالرغم ان هذه الاشياء تنعكس عادة على تجارب الفرد ومن ثم على شخصيته ، فانها، على ما يبدو ، ذات اهمية ضئيلة في تكوين الشخصية . اذ نجد دائماً بـين المحيط الطبيعي والفرد بيئة بشرية اعظم اهمية منها . وتتكون هذه البيئة البشرية من جماعة منظمة من الافراد الآخرين ، وبكلمة اخرى ، من مجتمع ، واسلوب حياتي خاص تتميز به تلك الجماعة ، اي حضارة . وان تفاعل الفرد مع البيئة

البشرية والاسلوب الحياتي هو المسئول عن تكوين اكثر انماط سلوكه ، بل وعن الاستجابات العاطفية المتأصلة فيه .

ومهما يكن للعبارة التالية من صــدى محزن لدى الانانيين فالواقع ان قلة من الافراد فقط يمكن اعتبارهم اكثر من مجرد حوادث طارئة في تاريخ حياة المجتمعات التي ينتمون اليها . فمنذ زمن بعيد بلغ جنسنا البشري، المرحلة التي اصبحت فيها الجماعات المنظمة ، لا الافراد الذين يؤلفونها ، الوحدة العاملة في كفاحها في سبيل البقاء . والحياة الاجتماعية تحمل من خصائص الانسان العاقل قدر ما تحمل اسنانه المنوعة وابهامه التي يستخدمها في المقاومة من خصائصه . على اننـا اذا نظرنا الى اسلافه والى طبيعته ، وجدنا ان اغرب ما في المجتمعات البشرية هو انها قد نشأت أصلاً . وليس نوعنا بحال من الاحوال هو اول الانواع التي اقدمت على تجربة الحياة في جماعة منظمة ، ولكن الفجوة التي تفصل مجتمعاتنا عن مجتمعات اقرب اقربائنا من المخلوقات ، هائلة جداً . فاذا رغبنا في التعرف الى نظام حياتي مثل نظامنا، فان علينا ان نلجأ الى فئة اخرى – الى الحشرات التي انشأت مجتمعات لا تكاد تقل عن مجتمعاتنا تعقيداً ، ولكنها انشأتها بوسائل وأساليب يستحيل علينا اتباعها . فلقد احكمت تهذيب غرائزها على حساب قدرتها على التعلم، وبخاصة على حساب قدرتها على الاستنباط والاختراع . واتجه تطورها كله نحو انشاء كائنات آلية (Automatons) حية محكمة التكوين معدة للعمل في بيئات

محددة . انها مخلوقات جمعت بين الحد الاقصى من الفعالية والحد الادنى من الفردية . فالحشرات تتعلم بصعوبة وتنسى بسرعة ولكن يمكنها في معظم الحالات ان تتم دورة حياتها القصيرة دون حاجة الى التعلم على الاطلاق ، وبالاحرى دون حاجة الى حل اية مشكلة جديدة . وما اعداد مثل هذه الكائنات الآلية لتأدية وظائفها بحكم كونها افراداً في مجتمع معقد التنظيم الا الخطوة التي تلي اعدادها للعمل في بيئة طبيعية محددة ومستقرة ولا تنطوي على اي مبدأ جديد. وبالجمع بين الاختصاص والغرائز تصبح كل نملة او نحلة صالحة لاحتلال مكان في مجتمعها . لكن النملة او النحلة منظمة جسدياً ونفسياً لكي تكون عاملة او محاربة ولا يمكن لها ان تقوم باية وظيفة اخرى ، فحاجاتها الذاتية الخاصة لا تتعدى الحد الادنى وهي لا تتطلب شيئاً قد يجرها الى نزاع مع بقية اعضاء جماعتها الواحدة ، وما لم تكن قد اختيرت لمهام النسل والانجاب فانها مجردة من تلك الدوافع الجنسية التي تسبب الكثير من النزاع بين معظم الكائنات الفقرية . وباختصار ، فان الحشرات الاجتماعية اقرب الى النماذج الموحدة منها الى الافراد ، ويمكن لكل منها ان تقوم مقام الاخرى . ومنذ الساعة التي تخرج فيها الى الحياة تكون معدة اعداداً تاماً للقيام بوظيفتها الاجتماعية المقررة التي لا يمكنها الابتعاد عنها . فلا يمكن للنزاع الطبقي ان ينشأ في مملكة النمل . فالنمل لَبِنات بناء تامة التكوين تؤلف كياناً اجتماعياً متجانساً تام التكامل وجامداً كل الجمود . وتولد النملة مزودة بكل الصفات التي يرغب اكثر الحكام المستبدين تعنتاً في ان يتحلى بها رعاياه .

ويختلف الانسان عن الحشرات الاجتماعية اختلافاً شديداً .

فالانسان ثمرة عملية تطور اتجهت اتجاهاً كلياً الى تقوية النزعة الفردية . فلقد تخصصت الثدييات بالقدرة عـلى التعلم ، وفي المراحل العليا من ارتقائها ، بالقدرة على التفكير . فلما بلغ اجدادنا المرحلة الانسانية كانوا قد فقدوا معظم الاستجابات الآلية ، اما ما بقي لديهم منها فهو من ابسط الانواع . فليست للانسان غرائز ، على الاقل بالمعنى الذي نستعمل به هـذا الاصطلاح عندما نتحدث عن سلوك الحشرات ، فلا بد له من الناحية العملية ان يتعلم او يستنبط كل عمل يؤديه ، وعليه فالفرد ليس بقادر على انشاء انماطه الخاصة من السلوك فحسب ، بل عليه ان يفعل ذلك بنفسه ، زد على ذلك انه بالرغم من ان بعض هذه الانماط السلوكية يتخذ شكلاً مقرراً خلال عمليات تكوين العادات ، الا انها لا تقرر بشكل لا يقبل التغير كما هي الحال في الغرائز . وتصاحب القدرة البشرية على التعلم وعلى تكوين العادات قدرة اخرى لا تقل اهمية عنها وهي القدرة عـلى النسيان ، وعـلى ادراك الحالات الجديدة بصورة واقعيـة واستحداث سلوك جديد لمواجهتها . ولذا فان امكانات التنوع الفردي في مجال السلوك لا حد لها . فاذا صدرت عن عدد من الناس ردود فعل واحدة ازاء حالة بعينها رددنا ذلك الى تجاربهم المشتركة . ومن الواضح ان رصيد هذه التجارب المشتركة عند افراد مجتمع واحد اكبر بكثير منه عند افراد مجتمعات مختلفة . عـلى ان هنالك انواعاً من التجارب يشترك بهـا افراد الجنس البشري كله . فكل شخص بالغ مثلاً مرّ بدور الطفولة واعتمد في بقائه على عناية الآخرين به . وهذه التجارب والحاجات والقدرات المشتركة بين افراد الجنس البشري هي المسئولة عن

مثل هذا التشابه في السلوك الذي نلحظه بين الناس بوجه عام .

يبدو ان الفطرة قد وهبت نوعنا من امكانات التغاير والفردية اكبر مما وهبته لافراد الانواع الاخرى . فقد اتجه تطورنا كله اتجاهاً بعيداً عن انتاج تلك الوحدات المتماثلة التي تمد الكيانات الاجتماعية المعقدة بلبنات البناء المثالية . وسوف تظل الطريقة التي اصبحنا بها اجتماعيين لغزاً من الالغاز . فان اقرباءنا الذين هم دون المستوى البشري ، والذين يشاركوننا صفاتنا النفسية مع اختلاف في الدرجة اكبر منه في النوعية ، يميلون على العموم الى تأليف الجماعات . ولكن حتى المجتمعات الشبيهة بالبشرية تفتقر الى معظم معالم التخصص والتنوع في الوظائف الاجتماعية اللذين يتميز بهما مجتمعنا . والهوة التي تفصل هذه المجتمعات عن ابسط المجتمعات البشرية هي من الاتساع بحيث اننا نعتبر نشوء انماطنا الخاصة من الحياة الاجتماعية عملاً تطورياً بطولياً رائعاً . فنحن قردة شبه بشرية (Anthropoid Apes) تحاول ان تعيش كالنمل الابيض في الوقت الذي تفتقر فيه الى معظم ادوات هذا النمل . ترى ألم نكن نستطيع ان نفعل ذلك بطريقة افضل بواسطة الغرائز !

ومهما يكن اصل المجتمعات البشرية فانها تشترك في خصائص معينة . واول هذه الخصائص ، وربما اهمها ، هي ان المجتمع ، وليس الفرد ، هو الذي اصبح الوحدة المهمة في صراع النوع

البشري في سبيل البقاء . وباستثناء ما يقع بطريق الصدفة المؤسفة، كانفراد روبنصن كروزو في الجزيرة مثلاً، فان البشر باسرهم يعيشون بوصفهم افراداً في جماعات منظمة، وترتبط مصائرهم ارتباطاً لا يحل بمصير الجماعات التي ينتمون اليها . فهم لا يستطيعون تخطي اخطار الحضانة الباكرة (Infancy) او اشباع حاجاتهم بعد البلوغ بدون مساعدة الافراد الآخرين وتعاونهم . فمنذ عهد بعيد تجاوزت الحياة البشرية مرحلة العامل الفرد الى مرحلة الجماعة العاملة التي يؤدي كل فرد منها دوره الصغير المحدد في انتاج السلع .

والخاصة الثانية من خصائص المجتمعات هي ان حياتها عادة اطول بكثير من حياة اي فرد من افرادها . ويجد كل واحد منا نفسه على أثر ولادته في منظمة قد تم تكوينها من قبل . وبالرغم من ان مجتمعات جديدة تظهر الى الوجود في ظل ظروف معينة فان معظم الناس يولدون ويعيشون ويموتون افراداً في مجتمعات قديمة . والمشكلة التي تجابهم بوصفهم افراداً ليست انشاء مجتمع جديد وانما هي تكييف انفسهم حسب نمط من انماط الحياة الجماعية كان قد تبلور منذ زمن بعيد . وقد لا يبدو ان هناك ما يبرر الاشارة الى هذا الامر، ولكننا نلاحظ في كثير مما يكتب خلطاً بين اصول الانظمة الاجتماعية واصول السلوك الاجتماعي عند الفرد . فنشوء نظام الاسرة مشكلة

تختلف كل الاختلاف عن مشكلة دخول الفرد في الاسرة بوصفه عضواً اساسياً عاملاً .

وللمجتمعات خاصة ثالثة وهي انها وحدات فعالة عاملة . وبالرغم من انها مكونة من افراد الا انها تعمل كمجموع . ومصالح كل عضو من الاعضاء تخضع لصالح المجموع بكامله . بل ان المجتمعات لا تتردد قط في فصل بعض هؤلاء الاعضاء عندما يكون في ذلك فائدة للمجتمع كله . ويذهب الرجال الى الحرب ويموتون فيها لحماية المجتمع واغنائه، ويعزل المجرم او يقضى عليه لانه عامل ازعاج. وهناك تضحيات مستمرة واقل وضوحاً هي التضحيات بالميول والرغبات التي تتطلبها الحياة الاجتماعية ممن يشاركون فيها . ويكافأ هذا النوع من التضحيات بوسائل عديدة لعل رضى الآخرين اكثرها شيوعاً. ومع ذلك فان الانتماء الى مجتمع ما يتطلب تضحية جزء من الحرية الفردية، مهما ضعفت الروادع والقيود التي يفرضها المجتمع باستمرار. فالمجتمعات المعروفة بالحرة ليست حقاً كذلك، وانما هي تلك المجتمعات التي تشجع افرادها على التعبير عن فرديتهم في مجالات ثانوية مقبولة اجتماعياً . وهي في الوقت نفسه تكيف افرادها بحيث يلتزمون عدداً لا يحصى من القواعد والانظمة ، ويتم ذلك على نحو من الدهاء والدقة يكاد لا يشعر معه الافراد بوجود هذه القواعد بالفعل . فاذا احسن مجتمع ما تنشئة الفرد فان احساسه بالقيود

التي فرضها عليه لا يعدو احساسه بالقيود التي تفرضها ثيابه عادة على حركاته .

وتتميز المجتمعات بخاصة رابعة وهي تقسيم الاعمال الضرورية لبقاء المجتمع تقسيماً متناسباً على مختلف اعضائه. وليس هناك من مجتمع مهما كانت درجته من البساطة لا يستطيع التفريق بين عمل الرجل وعمل المرأة، على الاقل، كما ان معظم المجتمعات تعين ايضاً بعض الاشخاص وسطاء بين الانسان والقوى الخارقة للطبيعة، وقادة لتنظيم اعمال الجماعة وادارتها حسب قواعد معينة . على ان هذا التقسيم لا يمثل الا الحد الادنى ، ونلاحظ في معظم المجتمعات انه يتجاوز ذلك الى اسناد مختلف الحرف الى الاختصاصيين والعمال الاجتماعيين . وهذا التقسيم الشكلي للاعمال هو الذي يمد المجتمع بكيانه وتنظيمه وتماسكه، ويحول مجموع الافراد الذين يؤلفون المجتمع من كتلة لا شكل لها الى كائن عضوي . وكلما سار المجتمع خطوة في اختصاص وظائف الافراد اصبح الفرد الذي يؤديها اكثر اتكالاً على المجموع . فلا وجود للتاجر بلا زبائن ولا وجود لرجل الدين بدون رعية .

ان وجود مثل هذا النسق من التنظيم هو الذي يتيح للمجتمع ان يستمر على مر الزمن. فعمليات التناسل البيولوجية (الحياتية) وحدها تكفي لاستمرار الجماعة، ولكنها لا تكفي لاستمرار المجتمع . فالمجتمعات تشبه تلك المنشآت التاريخية القديمة — مثل

بارجتنا القديمة كونستتيوشن - التي تتجدد جزءاً جزءاً بينما تحافظ على الشكل الاصلي محافظة كلية . على ان هذا التشبيه لا يرضي باعتبار ان بناء المجتمع يتغير مع الزمن ايضاً استجابة للحاجات التي تفرضها الظروف المتغيرة . وعلى كل فان مثل هـــذه التغيرات تتم في الغالب تدريجاً، ويستمر تكوين النظم الاجتماعية بالرغم منها . وتحافظ المجتمعات على استمرارها كوحدات متميزة بتدريب الافراد الذين يولدون في الجماعة على احتلال اماكن خاصة بهم داخل بناء المجتمع . هذا ولا يكفي وجود الاعضاء لاستمرار وجود المجتمعات، بل لا بد كذلك من الاختصاصيين الذين يفوقون غيرهم في تأدية اعمال معينة فيتركون باقي الاعمال للآخرين . فاذا نظرنا الى عملية التأهيل الاجتماعي من زاوية الفرد ادركنا انها عملية يتعلم بها المرء ما يجب عليه ان يفعله لغيره من الناس وما يحق له ان يتوقعه منهم .

ونستدل من تجارب المختبرات والادراك العام ان جوهر التعلم الناجح يكمن في المكافأة او العقاب المناسبين . فالسلوك الذي يحقق دائماً نتيجة مرغوباً فيها، يكتسب بطريقة اسهل واسرع كثيراً من السلوك الذي لا يحققها دائماً . ويتوقف اعداد الفرد اعداداً ناجحاً لاحتلال مكان خاص في مجتمع ما، على توحيد سلوك افراد هذا المجتمع. فالولد الذي يستطيع ان يتعلم التصرف كما يتصرف الرجل، وان يصبح رجلاً ناجحاً عندما يحين الوقت، انما يفعل ذلك لان كل واحد في مجتمعه يتفق مع الآخرين على السلوك الواجب انتهاجه ويكافئه او يعاقبه بمقدار التزامه بهذا

النموذج المقرر او انحرافه عنه . وتعرف نماذج السلوك هذه عند علماء الانسان بالانماط الحضارية (Culture Patterns) وبدونها يستحيل على اي مجتمع كان ان يعمل او ان يستمر في البقاء .

ان مفهوم الحضارة مهم الى حد يقتضي بحثه في فصل خاص . وحسبنا الآن ان نعرّف الحضارة بانها اسلوب الحياة في اي مجتمع . ويضم اسلوب الحياة هذا تفاصيل مسلكية لا تحصى ولكنها تشترك في عوامل معينة . فهي جميعها تمثل الاستجابة * العادية المتوقعة من كل عضو في المجتمع اذا جابهته حالة بعينها. وهكذ، فبالرغم من التنوع الجزئي الذي لا حصر له، والذي يمكن تلمسه في استجابات مختلف الافراد او حتى في استجابات الفرد ذاته في اوقات مختلفة ، نجد ان غالبية افراد المجتمع تستجيب على نحو واحد عندما تجابهها حالة معينة . ففي مجتمعنا مثلاً ، يأكل جميع الناس تقريباً ثلاث مرات في اليوم، ويتناولون احدى هذه الوجبات حوالي الظهر . اضف الى ذلك ان الذين لا يتبعون هذا النظام يعتبرون ذوي طباع غريبة . ومن هـذا الاجماع على السلوك والرأي يتكون نمط حضاري، والحضارة بمجموعها ليست سوى مجموعة منظمة لمثل هذه الانماط .

---

* الاستجابة تعني الرد الموافق على طلب معين . (المترجم)

تزود الحضارة بمجموعها اعضاء اي مجتمع بدليل لشئون حياتهم كلها لا يمكنهم الاستغناء عنه . وبدونه يستحيل عليهم وعلى المجتمع ان يؤدوا وظائفهم تأدية فعالة . ولما كان غالبية اعضاء المجتمع يتصرفون على نحو معين في ظرف معين فقد امكن لاي انسان ان يتنبأ بسلوكهم بشكـــل ينطوي على كثير من الصدق ولكنه لا يصل الى مرتبة اليقين . وهذا التنبؤ شرط اساسي لاي نوع من انواع الحياة الاجتماعية المنظمة . فاذا كان على الفرد ان يؤدي اعمالاً للآخرين فلا بد وان يتأكد من انـــه سوف يحصل على مقابل لاعماله . ويتلقى الفرد هذا التأكيد من وجود الانماط الحضارية ، وما تفترضه من استحسان المجتمع وامكانات ضغطه على اولئك الذين لا يتبعونها . وعلاوة على هذا فقد اصاب الانماط الحضارية التي تميز كل مجتمع تعديل قارب بينها بشكل وثيق وذلك نتيجة للتجارب الطويلة وبخـاصة اسلوب الخطأ والصواب . فالفرد يحصل على نتائج حسنة اذا اخذ بتلك الانماط ، وعلى نتائج سلبية او سيئة اذا تخـــلى عنها . ويستند القول المأثور « افعل في روما ما يفعله الرومان » الى الملاحظة الصائبة . ففي روما ، او في اي مجتمع كان ، تنتظم الاشياء في الانماط الحضارية المحلية ولا تكاد تسمح بالانحراف عنها . ويمكن اعتبار الصعوبات التي يواجهها رجل انجليزي يبحث عن الشاي في احدى المدن الصغيرة في المناطق الغربية المتوسطة مثلاً على هـــذا .

اذا كان وجود الانماط الحضارية ضرورياً لتأدية المجتمع وظيفته فانه ضروري كذلك لاستمراره . فبناء المجتمع – اي طريقة تنظيمه – هو ذاته قضية حضارية . ومع اننا ، اذا كان الوصف هو غرضنا فحسب ، نستطيع ان نلجأ الى الاقيسة المكانية والى بناء نظام على اساس المراكز فاننا لا نستطيع تحديد هذه المراكز تحديداً وافياً الا على اساس السلوك الذي ينتظر من اصحابها اتباعه . وقد يشترط فيمن يريد ان يحل في احد هذه المراكز ان يتحلى ببعض الصفات الخاصة بالسن والجنس او العلاقات البيولوجية . ولكن حتى تعيين مثل هذه الشروط الاولية امر حضاري . وهكذا فان مراكز الاب والابن في جهازنا الاجتماعي لا يمكن توضيحها بالكلام على العلاقات البيولوجية القائمة بين الاثنين . بل من الضروري تبيان النمط الحضاري لسلوك الذين يحتلون هذه المراكز تجاه بعضهم بعضاً . وعندما نتناول مراكز كمركز العامل ومركز رب العمل نجد انه من المستحيل تحديدها الا على اساس ما قد يقوم به كل واحد منهما من اعمال تجاه الآخر ، او ما هو متوقع منه ان يفعله . فالمركز في اي نظام اجتماعي – بغض النظر عن الفرد او الافراد الذين قد يشغلونه في وقت من الاوقات ، هو في الحقيقة شكل متكامل من الانماط الحضارية . ومثل هذا يقال عن النظام الاجتماعي ، فهو بمجموعه شكل متكامل من الانماط الحضارية اوسع من المركز. ويزود الفرد بوسائل الحياة بين الجماعة ووسائل

التفاعل الاجتماعي بطريقة شبيهة جداً بالطريقة التي تزوده بها الاشكال المتكاملة الاخرى القائمة داخـــل الحضارة بمجموعها بالوسائل لاستغلال البيئة الطبيعية او حماية نفسه من الاخطار الخارقة . وتعمل المجتمعات على استمرارها بتعليم افراد كل جيل ، الانماط الحضارية الخاصة بالمراكز الاجتماعية التي ينتظر ان يحتلوها . فيتعلم الافراد الجدد في المجتمع كيف يسلكون اذا كانوا ازواجاً او رؤساء او اصحاب حرف وبذلك يضمنون استمرار هذه المراكز وبالتالي استمرار النظام الاجتماعي كله . وبدون حضارة يتعذر وجود الانظمة الاجتماعية البشرية وامكان اعداد اعضاء الجماعة الجدد لها .

ادرك انني في بحثي السابق في المجتمع والحضارة أكدت بصورة رئيسية على الدور السلبي للفرد وعلى كيفية تكوينه بفعل العوامل الاجتماعية والحضارية . ولقد حان الوقت الآن لعرض الوجه الثاني من الصورة . فمهما بلـــغ تدريب الفرد من الدقة والحذق ، ومهما بلغ تكييفه من درجة النجاح فانه يظل كائناً عصرياً متميزاً له حاجاته الخاصة وله قدراته على الاستقـــلال بالتفكير والشعور والعمل . اضف الى ذلك انه يحتفظ بدرجة كبيرة من الفردية . اما دمجه في المجتمع وفي الحضارة فلا يعــدو الاستجابات المكتسبة ، وبالرغم من ان هذه الاستجابات تشمل عند الرجل البالغ الجزء الاكبر مما نسميه الشخصية ، فانها تترك جزءاً كبيراً من الفرد . وحتى في اكثر المجتمعات والحضارات

اندماجاً وتماسكاً لا نجد اثنين من الناس يتشابهان تشابهاً تاماً كاملاً .

ان دور الفرد بالنسبة للمجتمع هو في الواقع دور مزدوج . اذ نجد في الظروف الاعتيادية انه كلما اكتمل تكييفه ومن ثم دمجه بالبناء الاجتماعي ، قوي اسهامه في تيسير عمل المجموع ، وازداد اطمئنانه على مكافأته . على انه لا بد للمجتمعات من ان تقوم وتعمل في عالم يتغير باستمرار . ثم ان مقدرة نوعنا التي لا مثيل لها على التكيف مـــع الاحوال المتغيرة وعلى استحداث استجابات اقوى للاحوال المألوفة تتوقف على ما يتبقى من الفردية في كل واحد منا بعد ان يكون المجتمع والحضارة قــد أثرا فيه الى ابعد حد مستطاع . والفرد ، بوصفه وحدة بسيطة في الجسم الاجتماعي ، يعمل على استمرار الوضع الراهن ، أما بوصفه فرداً فانه يساعد على تغيير هـــذا الوضع عندما تدعو الحاجة الى ذلك . وبما انه لا يمكن لاية بيئة ان تكون في حالة جمود تام ، فلن يكتب لمجتمع ما البقاء اذا خلا بين حين وآخر من مخترع ، ومن قدرته على ايجاد حلول للمشكلات الجديدة . وبالرغم من اختراع الاشياء غالباً ما تحدث استجابة للضغط الذي يقع على المخترع وعلى اعضاء مجتمعه ، فان الذي يحثه على الاختراع هو حاجاته الخاصة به . ولم يكن اول رجل كسا جسده بجلد او اشعل النار قد قام بذلك مدفوعاً باحساسه بحاجة مجتمعه الى مثل هذه الاعمال المبتدعة وانما فعل ذلك لشعوره

بالبرد . فاذا ما صعدنا درجة في سلم التعقيد الحضاري ، وجدنا ان الدافع لتغيير نظام ما او التخلي عنه - مهما يكن الضرر الذي يلحقه هذا النظام بالمجتمع بسبب الظروف المتغيرة — لا يصدر عن فرد لا يشكو منه . فالذين يخلقون الابتكارات الاجتماعية الجديدة هم الذين يعانون من الاوضاع الراهنة لا اولئك الذين يستفيدون منها .

من شأن الدور المزدوج للافراد بوصفهم افراداً ووحدات في المجتمع ان يزودنا بحلول لكثير من المشكلات التي تقلق بال الذين يدرسون السلوك البشري . فلكي يؤدي الفرد بوصفه وحدة في المجتمع وظيفته بنجاح عليه ان يتخذ لنفسه نماذج ثابتة محددة (Stereotyped) من السلوك — اي انماطاً حضارية . فان عدداً كبيراً من هذه الانماط الحضارية موجه نحو المحافظة على المجتمع اكثر مما هو موجه الى اشباع حاجات الفرد. والمجتمعات طائفة من الكائنات العضوية ، ولقد اصبح من المألوف ان نتحدث عن حاجاتها الخاصة المتميزة عن حاجات الافراد الذين يؤلفونها . الا ان لحديثنا هذا مدلولات مؤسفة لان خصائص المجتمعات تختلف تماماً عن صفات الكائنات الحية . ولهذا فالاوفق لنا ان نعبر عن الامور الضرورية التي تبطنها الاوضاع الاجتماعية بقولنا انه لا يمكن للمجتمع ان يدوم عبر الزمن او ان يؤدي وظيفته بنجاح في اي وقت من الاوقات الا اذا حققت الحضارة المرتبطة به بعض الشروط . فلا بد وان تشتمل على

اساليب لتلقين الافراد قيم المجتمع الخاصة ولاعدادهم لاحتلال اماكن خاصة في بنائه . ولا بد لها ايضاً من ان تشتمل على اساليب خاصة لمكافأة السلوك الذي يريده المجتمع ولتجنب السلوك الذي لا يرضى عنه . واخيراً ، فان انماط السلوك التي تؤلف الحضارة تحتاج الى ضبط وتعديل على نحو يحول دون تصادمها ومناقضة نتائج اي نمط منها لنتائج نمط آخر . ولقد انشأت كل المجتمعات حضارات حققت هذه الشروط بالرغم من ان عمليات انشائها ما تزال غامضة الى الآن .

لا بد لانماط الحضارة التي يعتمد عليها اي مجتمع من المجتمعات في بقائه من ان تغدو انماطاً من الاستجابات المعتادة لدى افراده. ويمكن تحقيق هذا الامر بفضل ما يملك الانسان من قدرة على استيعاب ما يتعلمه . وتعتمد المجتمعات استخدام التعليم لان التعلم عن طريق التجارب العرضية المشوشة لا يفي بالحاجة . فالناس كلهم يتلقون من المسنين تعليماً منظماً هادفاً . وبهذا تنتقل انماط السلوك المعقدة من جيل الى جيل . اما حافز الفرد الى قبول هذه الانماط واكتسابها فهو اشباعها لحاجاته الخاصة وبخاصة حاجته الى استجابة الآخرين على نحو مقبول . على ان اهمية هذا الاشباع من وجهة نظر مجتمعه ، تقوم على ما ينطوي عليه من اغراء فهو عندما يتعلم الانماط يتعلم كل نمط برمته ، وبهذه الانماط الكاملة يواجه (Subtend) ضرورات الحيـــاة الاجتماعية كما يواجه حاجاته الخاصة . واذ يقبل الفرد على اشباع

حاجاته المباشرة فانه يقع في شباك العملية الاجتماعية ، فهو يتعلم تناول الطعام استجابة لدافع الجوع، ولكنه يتعلم من الاكبر منه سناً «كيف يأكل كشخص مهذب» وهكذا فان دافع الجوع يثير فيه فيما بعد استجابة لا تشبع جوعه فحسب، وانما تشبعه باسلوب يقبله المجتمع وينسجم مع الانماط الحضارية الاخرى . وبالتعلم والتقليد يكتسب الفرد عادات تمكنه من تأدية دوره الاجتماعي لا بنجاح فحسب بل وبدون وعي منه تقريباً. وهذه القدرة على خلق شكل متكامل بدمج عناصر من السلوك يشبع بعضها حاجات الفرد ، ويؤمن بعضها الضرورات الاجتماعية ، والقدرة عل تعلم هذه الاشكال المتكاملة ونقلها ، هي التي تجعل قيام المجتمع امراً ممكناً . وباتخاذ الفرد لهذه الاشكال المتكاملة وجعلها عادات له يكون قد اعد نفسه لاحتلال مركز معين في المجتمع وتأدية الدور الذي يقترن به .

والحقيقة التالية مهمة جداً لدراسة الشخصية ، وهي ان الفرد يتعلم باكتساب الاشكال المتكاملة المنظمة لا بتكوينها خلال تجاربه الخاصة . وهذا يعني ان الطريقة التي يستجيب بها الفرد لحالة معينة ، غالباً ما تعيننا على فهم تربيته اكثر مما تعيننا على فهم شخصيته . ومعظم الافراد الذين يحتلون مركزاً خاصاً في بناء اجتماعي معين ، يستجيبون على وجه العموم لكثير من الحالات بطريقة واحدة تقريباً . على انه ليس في صدور هذه الاستجابة عن الفرد من دلالة على شخصيته سوى انه يتمتع

بقدرة عادية على التعلم . اما ميوله واستعداداته الخاصة فـلا يكشفها نمـط استجاباته الذي قررته الحضارة بـل تكشفه انحرافاته عن هذا النمط الحضاري . على ان المهم في فهمه كفرد ليس نهجه الرئيسي في السلوك وانما هو الانعكاسات الخارجية لسلوكه . وفي هذه الحقيقة تكمن الاهمية الكبرى التي تؤديها الدراسات الحضـارية لدراسة الشخصية دراسـة نفسية (سيكولوجية) . والى ان يقف العالم النفساني على معايير السلوك التي يفرضها مجتمع معين ويتمكن من اسقاطها من دلائل الشخصية ، فسوف يظل عاجزاً عن النفاذ من الغلاف الخارجي من التناسق الاجتماعي والتماثل الحضاري ليصل الى الفرد الحقيقي الصحيح .



الفصل الثاني

مفهوم الحضارة



مفهوم الحضارة

لقد ادركنا منذ عهد بعيد جداً ان المجتمعات المختلفة لها اساليب حياتية مختلفة . ولا بد وان تكون حقيقة الفروق الحضارية قد تجلت لاول رجل وجد نفسه في محلة غريبة، وتعذر عليه الحديث مع اهلها وفهم كل ما رآه . ولو اسعف الحظ هذا الرجل فرجع الى محلته حياً لاستمد مما شاهده مواضيع يتحدث عنها كثيراً لمن يسمر معه . فغالبية الناس يبدون اهتماماً بسلوك الآخرين اذا كان غريباً واقبالاً على الحديث عنه . وما يلذ للناس من اية قصة رائعة يرويها الرحالة ليس الحديث عن الاماكن الغريبة ، بل عن الغرباء . فالقصص عن العادات الغريبة هي موضوع احاديث البشر الذين يستمعون اليها بالمزيج ذاته من ارضاء الغرور والحسد الخفي الذي يضفي على القال والقيل المحلي رونقه ومتعته . ولقد خصص هيرودوتس، اعظم راوية عالمي، الجزء الاكبر من تاريخه لسرد ما نعتبره اليوم اوصافاً للحضارة . بل انه تجاوز ذلك الى اظهار بعض الفروق البارزة بين العادات الاغريقية والعادات المصرية، وتعجب في صدق من عادة هؤلاء البرابرة في اللجوء الى منازلهم لقضاء حاجاتهم بدل ان يفعلوا ذلك في الشوارع كما كانت عادة الاغريق المتمدنين .

ولقد سجل مختلف الكتاب القدماء منهم والمحدثون مثل

هذه المعلومات الجزئية مما ادى الى تراكم مستمر للمعطيات لا يزال ينتفع بها من يدرس المجتمع والحضارة . على ان هذا الصنف من المعلومات كان يجمع حتى وقت قريب بتلك الروح التي دفعت الهواة الى جمع آثار الهنود الحمر. وكان الناس يعتبرون عادات الجماعات غير الأوروبية شيئاً غريباً يثيرون به دهشة الجهلاء، ويزداد فخر مكتشفها بها كلما كانت اكثر ندرة وغرابة. ولقد جرى كتاب هذه الفترة دائماً على اعتبار عاداتهم اموراً مسلماً بها، وكانوا الى ما قبل خمسين عاماً اذا وجدوا في اطروحة تتناول العادات البشرية وصفاً لنمط حضاري اوروبي حديث سائد خارج نطاق الجماعات المنعزلة من الفلاحين، اعتبروه امراً شاذاً كوجود سكينة المطبخ مثلاً في خزانة ملأى بالحراب . على اننا نجد فترات مشابهة لجمع الامور الغريبة في مستهل نشأة معظم العلوم، ويبدو انها مرحلة ضرورية لنشوئها . فهي توجه الميل الفطري في الانسان للبحث عن الاشياء الجديدة نحو هدف مفيد وهو جمع المواد وحفظها حتى يتسنى للمهتمين بها فيما بعد دراستها وتنظيمها . وكثيراً ما يضيق الباحث الحديث، وهو يراجع هذه السجلات القديمة للعادات البشرية، باغفال مؤلفيها ذكر بعض الاشياء عن غير قصد ولكن عليه ان يرضى بالقول المأثور : « نصف رغيف خير من لا شيء » .

لقد سبقَت التحول من جمع الاشياء الغريبة الى البحث العلمي في السلوك البشري تعديلات معينة ومهمة من وجهة نظر الباحثين.

وكانت اولاها، وربما اهمها، ملاحظة ان نواحي الشبه بين عادات المجتمعات المختلفة اهم بكثير من الفروق بينها لفهم الحياة البشرية بوجه عام . وهكذا فان حقيقة وجود نظام الاسرة في كل المجتمعات هي اكثر اهمية في النهاية من حقيقة تعدد ازواج المرأة من الطبقات الدنيا في التبت . فالحقيقة الاولى تزودنا بفكرة عن حاجات الجنس البشري بوجه عام وامكاناته، اما الثانيـــة فليست سوى مشكلة صغيرة معينة لا يمكن حلها الا بالنظر الى الاوضاع المحلية والتاريخ المحلي . وحتى عندما يتم حل مثل هذه المشكلة فان الحل لا يفيدنا كثيراً في التنبؤ بسلوك افراد المجتمعات الاخرى .

اما التغير الثاني الذي طرأ بعد الاول بمدة على وجهة النظر فهو التنبه الى ان هنالك مشكلات كثيرة لا يمكن حلهـــا الا بدراسة اساليب الحياة كاملة في عدد من المجتمعات . فبالرغم من اننا قد نعرف اشياء معينة عن السلوك البشري بالمقابلة بين الاشكال التي يتخذها نظام معين، كالزواج مثلاً، في مختلف المجتمعات ، فهناك اشياء اخرى كثيرة لا نستطيع ان نتعرف اليها الا بمراقبتنا كيف يجري الزواج في مجتمعات معينة والترابط بينه وبين الانظمة الاخرى. ويزداد نجاح هذا المنهج عندما نحاول ان نفهم سلوك الافراد . فبالرغم من انهم يستجيبون لاوضاع معينة بطرق معينة، فان شخصياتهم تتكون بممارستهم اسلوب الحياة في مجتمعهم بكامله . وعليه فان تطور دراسات الشخصية

يجعل دراسة مفهوم الحضارة ذات اهمية اولية لعالم النفس ولعالم الاجتماع وعالم الانسان على السواء . ويمكن اعتبارها احدى الوسائل المفيدة التي يجري بها علماء النفس ابحاثهم . الا ان ادراك معانيهـــا البعيدة وحدودها امر ضروري لاستخدامها بنجاح .

وعندما يرد مصطلح «الحضارة»، في الدراسات العلمية فانه يخلو من اي تقييم يضفيه عليه الاستعمال العام . « فالحضارة » تشمل جميع مظاهر حياة المجتمع ولا تقتصر على تلك المظاهر التي هي موضع تقديره ورغبته . وعليه فليس لمصطلح «الحضارة»، عندما تشير الى اساليبنا الخاصة في الحياة، علاقة بالقدرة على لعب البيانو او بقراءة اشعار براوننغ . فعالم الاجتماع لا يرى في اي نشاط من هذا القبيل سوى انه عنصر من عناصر الحضارة بمجموعها . اذ يشمل مجموع الحضارة هذا كذلك اعمالاً دنيوية يومية كتنظيف الاطباق او قيادة السيارة، اعمالاً توضع، لدى دراسة الحضارة، على قدم المساواة مع «الامور الرفيعة في الحياة» . ومن ثم فليس لدى عالم الاجتماع مجتمعات او افراد بلا حضارة . فلكل مجتمع حضارة، مهما كانت هذه الحضارة بسيطة، وكل انسان متحضر بمعنى انه يشارك في حضارة من الحضارات . والواقع انه ينبغي لعالم الاجتماع ان يبدأ نشاطه بالبحث في الحضارات، اي في طرق الحياة التي تعتبر مميزة لمجتمعات خاصة . والحضارة، بالمعنى الذي يستعملها فيه عالم الاجتماع هذا، تعميم

مبني على ملاحظة سلسلة من الحضارات والمقارنة بينها . وعلاقة هذا التعميم بكل حضارة منها شديدة الشبه بعلاقة « القرد العنكبوتي » الذي يصفه عالم التاريخ الطبيعي بعدد لا يحصى من افراد هذا النوع من القردة . وعندما يقول عالم الانسان بان الحضارة تتميز بكذا وكذا من الامور فان الذي يعنيه فعلاً هو ان الحضارات كلها تشترك في هذه المميزات . فالحضارات التي تقترن كل واحدة منها بمجتمع معين هي التي تؤلف وحدات العمل المنظمة ، وينبغي ان يدرس الفرد بالنظر الى حضارة خاصة معينة لا الى الحضارة بمفهومها العام .

وبالرغم من انه قد مضى زمن طويل على استخدام مصطلح « حضارة » للدلالة على طريقة الحياة التي يتبعها مجتمع معين ، فان معناه الدقيق من حيث المحتوى ما يزال امراً غامضاً من بعض النواحي . وكما هي الحال مع عدد من المفاهيم الاخرى المتداولة في العلوم الاجتماعية تحدد مفهوم « حضارة » بعملية تدريجية خلال تداوله. وعلاوة على كون هذه العملية تتلاءم تماماً مع حاجات العلوم الحديثة التي تتطور تطوراً سريعاً فانها ستظل المرجع العملي الوحيد ما دمنا نفتقر الى مرجع نهائي يبت في الخلافات بين الآراء . فعندما يظهر مصطلح جديد ، يميل المختصون بالعلم ذاته الى استخدامه بمعنى واحد ، ولكن واحدهم يخالف الآخر في تعريف مضمونه الدقيق . وبمرور الزمن يتفق العلماء على ما في المعنى من عناصر مشتركة ويهملون العناصر

المختلف عليها . وتتمخض هذه العملية في النهاية عن ظهور مفهوم محدد يوضع له مصطلح واحد واضح المعنى لدى جميع العاملين في ذلك الحقل . ولكن هذا المصطلح المتداول يظل، حتى بعد ان يتم مثل هذا الاتفاق ، عرضة لعدد من تعريفات مختلفة . وذلك لان جوهر التحديد هو اختيار نواحي معينة من مفهوم المصطلح الكامل وتأكيدها على حساب النواحي الاخرى . ويتوقف هذا التأكيد ، وما يخلعه على التحديد من قيمة تلائم اغراضنا ، على الغرض النهائي الذي يرمي اليه صاحبه . وهنالك تعريفات كثيرة ممكنة لمصطلح « حضارة ما » ، يتلاءم كل منها مع نوع معين من الابحاث . وعليه يمكن تعريفها تعريفاً صحيحاً عندما نقول بانها « الارث الاجتماعي لاعضاء المجتمع » ولكن هذا التعريف قليل الفائدة للذين يدرسون تكوين الشخصية .

ولي تعريف جريء بنيته على استعمال المصطلح ومفهومه بوجه عام واخذت فيه بعين الاعتبار نواحي اهتمام الباحثين في الشخصية ، وهو : « الحضـــارة شكل متكامل من السلوك المكتسب ونتائجه يشترك في عناصره وينقلها افراد مجتمع معين » . على ان هذا التعريف كغيره من التعريفات في حاجة الى شرح وتوضيح . فكلمة « شكل » تعني ان مختلف انواع السلوك ونتائج السلوك التي تكون حضارة ما تنتظم في نمط كلي . وتنطوي هذه الظاهرة من ظواهر الحضارة على عدد من المشكلات لا ضرورة لتناولها في هذه المرحلة . ويحدد مصطلح « السلوك المكتسب » نواحي النشاط التي تعتبر جزءاً من اي شكل حضاري متكامل بحيث يقصرها على تلك التي عدلتها عملية الاكتساب . وقد قبل

هذا التحديد بسبب تداوله زمناً طويلاً . ولم يسبق ان اعتبر السلوك الغريزي والحاجات الاساسية او التوترات العاطفية التي تمد الفرد بحوافز السلوك الاساسية اجزاء من الحضارة بالرغم من تأثيرها الواضح فيها . على ان حذف هذه الظواهر من مفهوم الحضارة يترك لها رغم ذلك مجالاً واسعاً . ويبدو ، كما اشرنا في الفصل السابق ، ان للانسان عدداً قليلاً جـــداً من الردود الانعكاسية غير المكيفة الى جانب تلك المرتبطة بوظائفه الفيسيولوجية . وبالرغم من ان حوافز سلوكه هي حاجاته ، فان تجاربه تكيف عادة الاشكال التي يتخذها هذا السلوك . وهكذا ، فبالرغم من ان الاكل هو عملية استجابة لحاجة الفرد الى الغذاء ، فان الطريقة التي يأكل بها المرء تتوقف على تعلمه آداب المائدة . وينبغي ان نأخذ مصطلح « سلوك » في التعريف الذي هو موضوع البحث باوسع معانيه بحيث يشمل كل نشاط الفرد واعماله ظاهرة كانت ام مستترة ، جسدية كانت ام نفسية . ولهذا فان التعريف الذي سقناه يقضي باعتبار التعلم والتفكير وما شابه ذلك ، اشكالاً من السلوك هي من نوع الحركات العضلية المنظمة التي تدخل في العمليات التقنيـــة . ويشير اصطلاح « نتائج السلوك » الى ظواهر من نوعين مختلفين تماماً وهما الظواهر النفسية والظواهر المادية . اما الاولى فتشمل نتائج السلوك التي تتمثل في حالات الفرد النفسية . وبهذا يمكن ادخال مواقف الفرد وانظمة القيم والمعرفة كلها في هذا النوع . وقد يبدو لنا اعتبار هذه الظواهر نتائج للسلوك عملاً ينطوي على القسر ،

ولكن مما لا شك فيه انها تنشأ وتتثبت في الفرد نتيجة لتفاعله مع البيئة التي تحيط به وما يتلو التفاعل من تعلم . وفي الوقت نفسه لا يمكن اعتبارها سلوكاً مكتسباً لانها تفتقر الى الصفات الدينامية (الحركية) التي ينطوي عليها هذا المصطلح . وهي ، كالاشياء الموجودة في المحيط الخارجي ، ذات تأثــــير موجه في تطور انماط السلوك . وهكذا فان الفرد عندما يواجه حالة جديدة يعمد الى الرد عليها لا على ضوء الحقيقة الموضوعية فحسب بل وعلى ضوء المواقف والقيم والمعرفة التي اكتسبها نتيجة تجاربه الماضية . فالرجل الملون الذي يلتقي رجلاً ابيض للمرة الاولى قد يعبده كما لو كان الهاً ، او يكرمه كضيف محترم او ينقض عليه في اللحظة التي يراه فيها . لكن تصرفه يتوقف كلياً على عوامل من النوع الذي نتحدث عنه .

وقد يعترض بعض علماء الاجتماع على ادخال نتائج السلوك المادية في الظواهر التي يشتمل عليها مفهوم الحضارة ، ولكن علم الانسان قد اعترف بادخالها منذ ان اقر مصطلح « الحضارة » ذاته . فالمواد التي اعتاد افراد اي مجتمع صناعتها واستخدامها عرفت كلها دائماً « بحضارته المادية » واعتبرت جزءاً اصيلاً من الشكل الحضاري المتكامل . والمشكلة الحقيقية في هذه الحالة هي ما اذا كنا سنعتبر هذه المواد ذاتها جزءاً من الحضارة ام انه يجب قصر محتوى الشكل الحضاري المتكامل على العناصر النفسية التي تقابلها هذه المواد . وبعبارة اخرى ، هل ندخل

الفأس ام نقتصر على الافكار السائدة بين افراد المجتمع عن شكل هذه الفأس وما ينبغي ان يكون لها من صفات ؟ فان ادخال الاشياء المادية يعقد عمل الباحثين الذين يحاولون ان يستخدموا المفهوم الحضاري لغايات معينة ، ولكن خسارة الذين يدرسون الشخصية تفوق ربحهم من جراء حذف الحضارة المادية . فالمحيط الذي يعيش ويعمل فيه اي فرد من الافراد يحتوي دائماً على طائفة كبيرة مختلفة من مصنوعات الانسان التي قد يكون لصلته بها تأثير كبير على شخصيته المتطورة . ولذا فان هذه الناحية من البيئة الكلية قد تساعد او تعيق تطور المهارة اليدوية والحذق او حتى تطور الخصائص الاساسية للشخصية كمواقف التهيب او الاعتماد على النفس . فالتجارب الاولى التي يكتسبها طفل عاش بين الاشياء الاولية او في بيت مليء بالاشياء السريعة العطب تختلف كل الاختلاف عن تجارب طفل نشأ في مسكن لا يجد فيه شيئاً يستطيع تخريبه ولا شيئاً يؤذيه . بل ان عادتنا في الجلوس والنوم على اثاث مرتفع القوائم يعرض الاطفال للخطر مفقودة تماماً في مجتمع اعتاد ابناؤه على القعود والنوم على الارض.

اما عبارة «يشترك... وينقلها» الواردة في تعريفي للحضارة فتزيد في تضييق نطاق الاشكال المتكاملة للحضارة . وينبغي في هذه الحالة لمصطلح «يشترك» ان يعني ان نمطاً معيناً من السلوك او موقفاً او جزءاً من المعرفة مشترك بين فردين او اكثر من افراد احد المجتمعات . على انه ليس للاصطلاح ذاته اية

دلالة مضمرة على العمل المشترك ولا على الملكية المشتركة . وعليه ينبغي الا نعتبر ضرباً من السلوك ينفرد باتباعه شخص واحد جزءاً من حضارة مجتمعه . ومع ذلك ، فقد تصبح هذه الامور الفردية على مرّ الزمن جزءاً من الحضارة . والواقع هو ان المبتكرات الحضارية تنشأ في الاصل لدى افراد او مجموعة صغيرة منهم . وهكذا فاننا لا نعتبر اسلوباً جديداً في حياكة السلال جزءاً من الحضارة ما دام مجهولاً الا من صاحبه ، ولكنه يصبح جزءاً من الحضارة حين يشترك في استعماله عـــدد من الافراد الآخرين .

ولكي نستزيد من تفسير التقييدات التي يفرضها عامـــل المشاركة هذا على محتوى الحضارة لا بد من ان نتذكر ان الحضارات ذات سياق متواصل ، لذلك فان المشاركة التي تبرر ادخال مادة معينة في شكل حضاري متكامل يجب ان تتقرر بالنسبة الى السياق الاجتماعي الحضاري المتواصل وليس بالنسبة الى ما تكون عليه تلك الحضارة في وقت معين . وهكذا فان حقيقة وجود طبيب واحد يمارس عمله في مجتمع معين في عام ١٩٤٣ لا يعني اخراج مهارات الاطباء من حضارة ذلك المجتمع ، فان مثل هذا المجتمع يكون قد انجب وينجب في المستقبـــل اطباء آخرين لهم مثـــل تلك المهارات . وعليه فان الافراد يشتركون دائماً في نماذج خاصة من المعرفة ومن السلوك ، حتى ولو هم لم يشتركوا فيها في وقت معين . وهذا يثير على الفور قضية

ما اذا كان يحق لنا اعتبار المعارف الفردية الخاصة او ضروب السلوك الفردي الخاص ، التي تبلغ فيما بعد المرتبة الحضارية ، اجزاء من الحضارة منذ اللحظة التي تظهر فيها . ربما كان علينا ان نفعل ذلك على اساس من المنطق ، ولكن بما انه لا يمكن تحديد مكانها الا بالرجوع الى الماضي ، وبما انها لم تكن عند ظهورها عنصراً له وظيفته في الشكل الحضاري المتكامل النافذ، فان القضية لا تخرج عن كونها مسألة اكاديمية .

ولا بد لنا من ان نورد تقييداً آخر لاصطلاح « يشارك » . اذ ينبغي الا يفهم منه ان العناصر التي تعتبر جزءاً من شكل حضاري متكامل يجب ان تكون مشتركة بين جميع افراد المجتمع على مدى الزمن او في تاريخ معين . والواقع انه يستحيل علينا ان نجد عنصراً حضارياً يشارك فيه جميع افراد المجتمع وخلال فترة وجوده بكاملها. فالحضارات تتغيّر وتنمو ، وتتخلى في مجرى تاريخها عن بعض العناصر وتكتسب عناصر جديدة . وقد تؤدي هذه العملية الى تغيير محتواها تغييراً يكاد يكون تاماً ، والى حدوث تغيرات عميقة في نمطها (Pattern) اذا ما استمر المجتمع المعني في بقائه مدة كافية وتعرض لتقلبات كافية . وعليه فهناك اماكن كثيرة في العالم اثبتت دراسات علم الانسان (علم الجسم البشري) ان سكانها قد تحدروا مباشرة من سلالة تعود الى العصر الحجري الحديث ، وان سيرهم الاجتماعي والحضاري لم ينقطع ابداً ، ومع ذلك فما اقل الخصائص التي

تشترك فيها حياة هؤلاء الاحفاد المعاصرين مع حياة اسلافهم في ذلك العصر. بل اننا اذا تناولنا شكلاً حضارياً اجتماعياً متكاملاً عند نقطة زمنية معينة لما وجدنا اياً من عناصر الحضارة في وضع مشترك بين جميع افراد المجتمع ، بل نجد ان بعض العناصر التي يشارك فيها جميع الكبار لا تحظى بمشاركة الاطفال الصغار ، هذا بينما نجد الكثير من افكار الكبار مشتركة بـين طوائف معينة من المجتمع ، كالرجال او النساء او الصناع المتخصصين . ومع هذا ينبغي ان نعتبر مثل هؤلاء المختصين جزءاً لا يتجزأ من الشكل الحضاري المتكامل . فهم يتكيفون مع العناصر الاخرى داخل ذلك الشكل ويسهمون فيما يعود على المجتمع كله بالخير .

امـا اصطلاح « ينقلها » في تعريفي للحضارة فيحتاج الى شيء من التوضيح . فالمشاركة في عناصر السلوك وغير ذلك ، تتوقف على انتقالها من فرد الى فرد بواسطة التعليم او التقليد . وتجري هاتان العمليتان دائماً وباستمرار . ثم ان غالبية العناصر التي تؤلف شكلاً حضارياً متكاملاً تنتقل من جيل الى جيل وتستمر مدة اطول من عمر اي فرد في ذلك المجتمع . وبالنسبة للفرد نجد ان حضارة المجتمع الذي ينمو فيـه تؤلف تراثه الاجتماعي المتميز عن تراثه البيولوجي . وتزوده هذه الحضارة بسلسلة من القدرات التي تمكنه من التكيف مع البيئة التي عليه ان يعيش ويعمل فيها. وهذه القدرات التي تتضمنها انماط السلوك جاءت نتيجة تجارب اسلافه من افراد مجتمعه وقد انتقلت اليه بواسطة عمليات التعلم. وهي تعفيه من ضرورة معاناة تجارب هي مؤلمة في

الغالب في سبيل اعداد نفسه اعداداً ناجحاً . ويقابل انتقال هذه القدرات على السلوك من عدة وجوه انتقال التحولات الفيسيولوجية والتركيبية التي حدثت لاجداده نتيجة للتغيرات الفجائية التي طرأت على صفاتهم الموروثة ولاختيار الانسب منها . وعلى ذلك فان الاساليب الحضارية التي يتبعها مجتمع زنجي في غربي افريقيا للحصول على غذائه من الغابة ، والتي نشأت عند الاجيال السالفة ، تنتقل الى الفرد عن طريق التعلم . كما ان الوراثة تمده بدرجة كبيرة من المناعة التي نشأت عند الاجيال السالفة ضد الملاريا . وكلا الامرين ضروري للحياة وللبقاء في الاحوال المحلية السائدة .

ويمكننا ان نلاحظ من بحثنا الآنف في الحضارة، ان المفهوم يشتمل على ظواهر تنقسم على الاقل الى ثلاث فئات : مادية، اي المنتوجات الصناعية ، وحركية ، او السلوك الظاهر (لانه بالضرورة ينطوي على الحركة)، ونفسية، اي المعارف والمواقف والقيم التي يشترك فيها افراد المجتمع . ويمكننا من اجل اغراض هذا البحث اعتبار الفئتين الاولى والثانية الناحية الخارجية للحضارة، واعتبار الفئة الثالثة الناحية المستترة لها . وكلتا الناحيتين حقيقية ومهمة لفهم السلوك البشري . ولكنهما تواجهان الباحث بمشكلات مختلفة . فالناحية الخارجية لاية حضارة حية ملموسة تخضع للمشاهدة والتسجيل المباشرين ، ويمكن التحقق من كل استنتاج يتولد منه بواسطة اجهزة ميكانيكية كالسينما مثلاً او مسجلات

الصوت . وكل خطأ يقترف لا يخرج عن كونه خطأ في المشاهدة يمكن تصحيحه بسهولة .

اما تسجيل الناحية المستترة من الحضارة فينطوي على مشاكل من نوع آخر ، وما هذه الناحية المستترة سوى حالات نفسية لا يمكن الاستدلال على طبيعتها وحتى على وجودها الا من السلوك الظاهر الذي ينشأ عنها . ومشكلة التثبت من الانماط المستترة في حضارة ما تشبه الى حد كبير جداً مشكلة التأكد من محتوى شخصية الفرد وتنظيمها . ويتعرض البحث فيها الى الاخطاء ذاتها. وبالرغم من اننا نشهد تحسناً مضطرداً في اساليب دراسة الشخصية دراسة موضوعية مجردة، فلا يزال هنالك مجال كبير جداً للاحكام الذاتية حتى عند تشخيص شخصيات فردية . وعندما نحاول اجراء ذلك التشخيص لافراد مجتمع باسره ، او حتى لافراد جماعة خاصة منه ، فان احتمال الخطأ يقوى كثيراً .

يندر ان يكون عمال الميدان المختصون بعلم الانسان قد تدربوا على استعمال الوسائل الدقيقة المتقنة في الاختبارات النفسية، وحتى لو توفر لديهم التدريب فانهم نادراً ما يستطيعون اجراءه لاكثر من عينة صغيرة من المجتمع . ويكاد الحصول على هذه العينة بطريقة عفوية يكون مستحيلاً، فالافراد الذين يتصل بهم عامل الميدان ليسوا مجرد وحدات في جدول احصائي، بل هم اشخاص حقيقيون يثير فيهم الباحث ردود فعل كالتي

نلاحظها لدى افراد مجتمعنا . وبما انهم لا يستطيعون عادة فهم الغاية من الاختبارات، فان مقاومتهم لاجرائها تكون اقوى من مقاومة افراد مجتمعنا لها . وعلى هذا فان الاشخاص الوحيدين الذين يتيسر اختبارهم هم عادة : ١) اولئك الذين يرضون عن الباحث فيتعاونون معه بدافع من الصداقة . ٢) اولئك الذين يعيشون على مستوى اقتصادي منخفض الى درجة يمكن معها التغلب على مقاومتهم بدفع الرسوم الضئيلة التي تخصص عادة لمثل هذه الخدمات . واذن فهناك اختيار واقعي فعلي، وان كان لاشعورياً، لما نختبره، الامر الذي يخلق مجالاً للخطأ اذا ما حاول المرء ان يطبق نتائج اختباراته على المجتمع كله .

بل ان عامل الاختيار يزداد اهمية في حالة تلك الاتصالات المستمرة والعلاقات الوثيقة الضرورية لتكوين احكام اعتباطية على الشخصية، فالمراقب الذي يعيش في مجتمع غريب يستطيع اقامة علاقات ودية وثيقة مع قلة من الافراد فقط . لكن هذه القلة تختلف باختلاف شخصيات الطرفين ورغباتهم . فالمواطنون الوحيدون الذين يتمكن باحث ما من معرفتهم معرفة وثيقة هم اولئك الذين يميل اليهم ويميلون اليه . على ان الاستنتاجات التي تبنى على مثل هذه العينة المختارة قد لا تصدق على المجموع كله . فخلال تجاربي مع عدد من الجماعات «البدائية » كنت دائماً اجد عدداً كبيراً من الافراد يشكون عن اقتناع في الامور الخارقة للطبيعة، ولكن من الخطأ ولا شك اعتبار مثل هذه الآراء عامة او حتى شائعة في هذه المجتمعات . وليس امامنا الآن لتجنب مواطن الخطأ الا ان يقوم عدد من الباحثين بدراسة كل مجتمع،

ولا بد لهؤلاء من ان يعملوا مستقلين وان يكونوا ذوي شخصيات مختلفة الى ابعد حد ممكن .

بيد ان الصعوبات التي اوردناها آنفاً لا تعني انه يستحيل الحصول على صورة واضحة للنواحي الحضارية المستترة في مجتمع من المجتمعات . بل تعني فقط ان ذلك امر صعب ، وان الاستنتاجات التي يقدمها باحث واحد يجب ان لا تعتبر بالضرورة القول الفصل والنهائي في الموضوع. فعلى الذين يدرسون الشخصية ويحاولون الاستناد الى تقارير علم السلالات (Ethnological) ان يدركوا مع ذلك ان القول بـــان افراد مجتمع معين جبناء او بخلاء او يهملون الاطفال يستند الى معلومات استمدها الباحث ممن اختارهم والى احكامه الذاتية ، اما القول بانهم يضعون اطفالهم على أسرة من خشب، او يصنعون اوعية من الخشب او يقيمون حلقات للرقص عندما يكتمل القمر فلا يستند الى مثل تلك المعلومات والاحكام .

وهنالك نقطة اخرى تتعلق بالتمييز بين الحضارة الظاهرة والحضارة المستترة ولا تخلو من فائدة للذين يدرسون الشخصية . فالناحية الظاهرة من الحضارة هي العامل الرئيسي في نقلها . اما الحالات النفسية التي تؤلف الناحية المستترة من الحضارة فليست بحد ذاتها قابلة للنقل . ولا يمكن للافراد الآخرين، بغض النظر عما اذا كانوا باحثين غرباء او افراداً صغاراً في المجتمع نفسه، ان يدركوا وجود مثل هذه الحالات الا بواسطة السلوك الظاهر الذي يعبر عنها . ثم ان الاتصال بالحضارة الظاهرة والخبرة المستمدة منها هما اللذان يثيران في كل فرد الحالات النفسية

المشتركة التي تؤلف الحضارة المستترة . فالفرد يشارك مجتمعه نمطه الحضاري في الخوف من شيء لا يؤذي، كجمجمة الانسان مثلاً ، لانه يرى غيره من افراد المجتمع يخافونها او لانهم يخوفونه منها . والفرد يكتسب نمط مجتمعه الحضاري في اسباغ قيم رفيعة على بعض الاهداف لان بقية افراد المجتمع يسعون الى بلوغها .

وآمل ان اكون قد اوضحت ما يعنيه عالم الانسان بالحضارة وباصناف الظواهر المختلفة التي يشتمل عليها مفهوم الحضارة . فلدى استخدام هذا المفهوم اداةً للبحث يلتبس الامر احياناً حتى على علماء الانسان انفسهم . ولهذا السبب نرى انهم كثيراً ما يعجزون حتى في دراساتهم الوصفية ، عن التمييز بين الحضارات في مسيرها الكامل، وبين الحضارات كما تبدو في لحظة معينة من الزمن ، بالرغم من ان هاتين الناحيتين من المفهوم تثيران مشكلات مختلفة وتتطلبان معالجات مختلفة بعض الشيء . وهذا التمييز اكثر اهمية للباحثين في العمليات الحضارية منه لعلماء النفس. فهؤلاء لا يعنيهم من سير الحضارة المتصل الا جزء يسير يوازي مدة حياة الفرد الذي يدرسه . وعلى كل حال فان عجز كثرة من المؤلفين في علم الانسان عن التمييز بوضوح بين الاحوال الراهنة للحضارات التي يصفونها وتلك التي لا وجود لها الا في ذاكرة الرواة المسنين قد يخلق لعلماء النفس الذين يحاولون استخدام اخبار الرواة صعوبات كثيرة . اذ ان وصفاً لحضارة قبلية يخلط بين انماط حضارية قديمة ومعاصرة بدون تمييز لا يمكن الاستفادة منه كمرجع لدراسة شخصيات افراد تلك القبيلة .

ويفوق هذا في الاهمية لدى عالم النفس عجز عالم الانسان بصورة تكاد تكون مستمرة عن التمييز بوضوح بين واقع حضارة ما بوصفه شكلاً متكاملاً للسلوك وبين الصورة التركيبية التي يستنبطها (Construct) من هذا الواقع ويستخدمها اداة لتنظيم المعطيات الحضارية والاستفادة منهـــا . على ان افتقارنا الى مصطلحات تمكننا من التمييز بوضوح بين هاتين الناحيتين من مفهوم الحضارة كان ولا يزال مصدر ازعاج مستمر لا لعلماء النفس وعلماء الانسان فحسب ، بل وللفلاسفة وعلماء المنطق الذين تصدّوا لبحث المفهوم الحضاري . وللمزيد من التوضيح اقدمت على وضـــع مصطلحين وهما الحضارة الحقيقيـة (Real Culture) والحضارة التركيبية (Culture Construct) ، سأشرحهما فيما يلي :

فالحضارة الحقيقية لاي مجتمع تتألف من السلوك الفعـــلي وغير ذلك مما يقوم به افراد ذلك المجتمع . وهي تشتمل على عدد كبير من العناصر لا يوجد بينها اثنان متماثلان تماماً . فلا يستجيب شخصان لمؤثر واحد على النحو ذاته بل ان الشخص الواحد يستجيب للمؤثر ذاته بطرق مختلفة في اوقات مختلفة . يختلف جزء صغير من السلوك من احدى النواحي عن اي جزء آخر، ويزيد من تعقيد الوضع انه لا يوجد قط مؤثران متماثلان تماماً . على ان الفرد يستطيع ان يتكيف بصورة تلقائية تقريباً مع محيطه رغم هذا التغاير الاصيل . ويجمع الفرد هذه المؤثرات

في صنف واحد ويعمم احكامه عليها على اساس ما بينها من شبه ويغض النظر عما بينها من اختلافات . وهكذا يتعلم التلميذ ان صوت الجرس الذي يسمعه وهو في الصف يعني ان ساعة الدرس قد انتهت متجاهلاً الاختلاف الضئيل في رنين الجرس ومدته وهو يستمع اليه يقرع يوماً بعـــد يوم . وكذلك الامر بالنسبة لاستجابته لعلامة من هذا القبيل . فبالرغم من انها لا تتكرر على نفس النحو تماماً ، فانها تكاد تكون مثل كل استجابة مـن نوعها . ويجابهنا وضع شبيه جداً بهذا عندما ننتقل من الفرد الى مجموعة من الافراد يشتركون في حصيلة واحدة من المعارف والتجارب. فاذا عدنا الى غرفة الدراسة وجدنا ان جميع الطلاب الذين مروا بهذه التجارب يتهيأون للخروج عنـــد سماعهم رنة الجرس ، وعلى الرغم من ان كلاً منهم يستعد على نحو مختلف عنه عند الآخر في الامور التفصيلية فان هذا الاختلاف في العادة ضئيل . فلا ريب في ان الطلاب يغلقون دفاترهم ويجمعون كل ما احضروه معهم الى الصف ، ولكن يستبعد ان يقدموا على خلع معاطفهم او احذيتهم .

وعليه فان عناصر السلوك التي لا حصر لها ، والتي تؤلف الحضارة الحقيقية ، يمكن تصنيفها على اساس الحالات التي تسبب في العادة ظهورها . ونقرن كلاً من هذه الحالات العامة بمجموعة معينة من طرق السلوك يشترك اكثرها في خصائص عـــديدة . وعلاوة على هذا فان الفوارق بـــين وحدات هذه المجموعة لا

تعـــدو في العادة حدوداً واضحة المعالم يمكن وضعها على ضوء الاعتبارات العملية المحض . وهكذا فان طرق صنع السلال المجدولة قليلة جداً . وتقام تلك الحدود ايضاً باقرار المجتمع لها . فلكل مجتمع اساليب معترف بها للزواج او لطلب حاجة من احد الرؤساء . فاذا شذ السلوك في كلتـــا الحالتين عن المألوف فشل صاحبه في تحقيق غرضه ، وهي حقيقة يعترف بها افراد المجتمع ضمناً ، وتعتـــبر انواع السلوك التي لا تخرج عن المألوف تصرفات سليمة مقبولة، اما التي تخرج عنه فتعتبر غريبة وتتعرض في كثير من الاحيان للنقد .

ويمكن وصف مثل هذا المدى من الاستجابات المألوفة لحالة معينة بانه نمط داخل الحضارة الحقيقية . وقد نعكس العبارة فنقول انه يمكن النظر الى الحضارة الحقيقية على انها شكل متكامل يتكون من عدد كبير من مثل هذه الانماط التي ينسجم كل منها مع غيره ويرتبط به. والشيء المهم الذي يجب ان نتذكره هو ان كل نمط من انماط الحضارة الحقيقية ليس عنصراً واحداً من عناصر السلوك بل مجموعة من التصرفات تختلف فيما بينهـــا اختلافات محدودة .

على ان اختلاف السلوك في اية حضارة حقيقية يخلق مشكلة صعبة حتى على مستوى الوصف الخالص . فمن البديهي انه من المستحيـــل وصف كل عناصر السلوك التي تؤلف بمجموعها

الحضارة . بل اننا لا نستطيع حصر مجموعات التصرفات التي تتكون منها استجاباتنا العادية لكل حالة قد تثير رد فعل عند اعضاء المجتمـــع . فاذا اراد الباحث عرض صورة شاملة لاية حضارة او الاستفادة من المعطيات الحضارية كان عليه ان يرسم صورة تركيبية للحضارة (Culture Construct) . وبهذا فانه يضع طرازاً للاختلافات المحدودة التي تقع في كل نمط من انماط الحضارة الحقيقية ويرمز به لنمط الحضارة الحقيقية . فاذا وجد الباحث ان افراد مجتمع معين قد اعتادوا النوم بين الساعة الثامنة والعاشرة مساءً ، ثم استخلص من دراسة عدد من الحالات ان اصحابها ينامون في التاسعة الا ربعاً ، فانه يعتبر النوم في الساعة التاسعة الا ربعاً احد انماط حضارتهم . ويمكن وصف مثل هذا الطراز من السلوك الذي استنتجه نمطـــاً حضارياً تركيبياً . ويتكون البناء التركيبي الكلي للحضارة من تجميع مختلف الانماط الحضارية التركيبية . وتشبه علاقة هذا البناء بالحضارة الحقيقية علاقة الانماط الحضارية التركيبية بالانماط الحقيقية . وبالرغم من ان الصورة التركيبية للحضارة لا تطابق الحضارة الحقيقية تمام المطابقة من اي وجه ، فانها تمدنا بصورة تقريبية مختصرة وملائمة للحالات السائدة ضمن نطاق الحضارة الحقيقية . ولقد ثبت بالتجربة ان الصور التركيبية تمكننا ، لا من دراسة بنـــاء الحضارات الحقيقية والترابط بين انماطها فحسب ، بـــل ومن التنبؤ الى حد كبير بسلوك افراد المجتمع في مختلف الحالات . وليست الصور التركيبية للحضارة الا اداة يستخدمها الباحثون ،

ولكنها اداة لا غنى عنها . ويبرر اتخاذها ما تعود عليهم به من نفع .

ومجمـــل القول ان **الحضارة الحقيقية** تتألف من المجموع الكلي للسلوك المشترك والمكتسب لدى افراد المجتمع . امـــا **نمط الحضارة الحقيقية** فيتمثل في نطاق السلوك المحدود الذي تقع ضمنه عادة تصرفات اعضـــاء المجتمع على اثر استجابتهم لحالات معينة تواجههم . وعلى هذا فقد يسلك مختلف الافراد بكيفيات مختلفة في الوقت الذي يظل فيه سلوكهم متفقاً مـع نمـــط الحضارة الحقيقية . اما **نمط الحضارة التركيبي** فيقابل طراز الاختلافات التي تقع ضمن نمط الحضارة الحقيقية . فاذا ما فهمنا هذا الفرق بوضوح ودقة اصبح من السهل ازالة معظم الصعوبات التي نواجهها في كل مرة نربط فيها تجربة فردية او سلوكاً فردياً بالمعطيات الحضارية التي نجدها في شكل تركيبي .

وتتجلى قيمة انماط الحضارة التركيبية في تلخيص غالبية مؤثرات البيئة المهمة في تكوين الشخصية عندما ندرس الاحوال التي تحيط بنشأة الفرد في كل المجتمعات. فالناس جميعاً ينشأون عادة ويعملون بوصفهم افراداً او جماعات منظمـــة تشترك في العيش في موطن واحد . وعلى هذا فان معظم نواحي البيئة التي يتفاعل معها الفرد تتألف من افراد آخرين او من اشياء من صنع الانسان . ويصح هذا بوجه خاص في المراحل الاولى من دورة

الحياة عندما تتكون الاسس التي تقوم عليها الشخصية . وبهذا تقوم عناية الكبار بالطفل حاجزاً بينه وبين الجزء الاكبر من المحيط الطبيعي الذي يحيط بمجتمعه . فالطفل الاسكيمو الذي تلفه امه بعناية بشالها قلمـــا يتأثر بجو القطب البارد . ويستمد الفرد معظم تجاربه الاولى من سلوك الآخرين . وقد يقصد الكبار بسلوكهم العناية بالطفل او الاستجابة لتصرفاته . كما انهم قــد يقصدون بسلوكهم اهدافاً يرغب فيها الطفل نفسه فيلاحظها و يقلدها. وفي كلتا الحالتين يمد سلوك الآخرين الطفلَ بتجربة ينسج على منوالها انماط سلوكه الخاصة به . فعندما يعبر الكبار عن عدم رضاهم عن طفل يتناول طعامه بيديه يقوده ذلك سريعاً الى الاقلاع عن هذه العادة ، واذ يلاحظ كيف يفتـــح الكبار علبة الحلوى او كيف يحصلون على المربى فانه يكتسب من تصرفهم نمطاً من السلوك يستطيـع فيما بعد ، وربما بينه وبين نفسه ، ان يطبقه .

وغالبية الحوادث التي تترتب عليها نتائج دائمة التأثير في تكوين الشخصية هي من نوع يتكرر وقوعه . وبالرغم من ان بعض الحوادث الغريبة والعنيفة قد تؤدي الى نتائج قاسية فان جوهر نشوء الشخصية – كما هي الحال في اقرب الطرق وادعاها الى اكتساب المعرفة – هو تكرار المنبهات المعينة والسلوك الذي يهيىء لها الاستجابات المناسبـــة . وتنبثق معظم المنبهات او المثيرات الخارجية التي يتأثر بها الطفل في الظروف العادية التي

تكتنف الحياة الاجتماعية ، من سلـوك الاشخاص الآخرين . وبالرغم من ان هذا السلوك لن يكون متماثلاً تماماً في حالتين مختلفتين ، فان مناحي السلوك المختلفة لا تخرج ابداً عن تلك المجموعات المحددة من التصرفات التي تتكون منها كما اشرنا آنفاً انماط الحضارة الحقيقية . اضف الى ذلك انه يوجد على ما يبدو ترابط وثيق بين طراز التغيرات التي تطرأ على مثل تلك المجموعة من التصرفات والخبرة التي يكتسبها الفرد مـن جراء اتصاله بالاشخاص الذين يتبعون تلك المجموعة، اي نمط الحضارة الحقيقية . وبكلمة اخرى فان مناحي السلوك المختلفة التي تنشأ في ظل نمط حضارة من الحضارات تؤدي وظيفتها عندما تؤثر في الفرد كما تؤدي وظائفها تلك الظواهر التي يدعوها علمـــاء الطبيعة بالظواهر المجتمعة . ومع الايام تأخـــذ الاختلافات في مناحي السلوك في التلاشي بحيث تكون حصيلتها التراكمية في تكوين الشخصية مماثـــلة لتلك التي تتأتى من تكرار تصرف واحد من طراز المجموعة التي يتكون منها النمط . وهكذا فان الخبرة التي نكتسبها من تناولنا الغداء في وقت ما بـين الساعة الثانية عشرة ظهراً والواحدة بعد الظهر ، وعلى الغالب في الساعة الثانية عشرة والنصف ، تماثل تلك التي قد نحصل عليها بتناولنا الغداء دائماً في الساعة الثانية عشرة والنصف .

وعلينا ان نبادر الى القول كذلك بان هذا لا يعني ان نتائج الاتصال بنمط حضارة حقيقية معين ستكون هي نفسها لدى

كل الافراد . فهناك شواهد كثيرة على ان الامر ليس كذلك . ذلك ان الخبرة التي يحصل عليها الفرد من مشاركته في اية قضية لا تتأثر فقط بالقضية بحد ذاتها ، بــل تتأثر ايضاً بامكاناته ومداركه . وهكذا فان النمط الحضاري الذي يوجب على احد الاطفال ابقاء صندوق الحطب مملوءاً ، يمد الطفل النشيط القوي بنوع من الخبرة ويمد الطفل الضعيف المريض بنوع آخر منها . ولظهور احد الغجر على الباب لدى طفل اخبره ذووه بان الغجر يخطفون الاطفال معنى يختلف كل الاختلاف عنه عند طفل آخر لا يعرف شيئاً عن مثل هذه المعتقدات الشائعة . وحتى في الحالات التي يمكن لنا فيها ان نعتبر الحالة الخارجية ثابتة فان هذه الحالة الخارجية تولد بتأثير العوامل الفردية نتـائج مختلفة باختلاف الاشخاص .

بما ان الحضارة التركيبية هي المجموع الكلي لطرز (Modes) مختلف الانماط التي تؤلف الحضارة الحقيقية ، وبما ان طراز كل نمط يقترن اقتراناً وثيقاً بنوع الخبرة التي يحصل عليها الافراد من جراء اتصالاتهم به ، فاننا نستطيع القول بانه يمكن استخدام الحضارة التركيبية لتلخيص المحيط الاجتماعي الحضاري الذي يستمد منه افراد المجتمع الجزء الاكبر من خبراتهم . ورغم انه قد لا يتسنى لجميع افراد المجتمع ان يكون لهم اتصال مباشر بكل انماط حضارتهم ، فانهم جميعاً يتصلون بانماط واحـــدة عديدة . ويمكننا اعتبار هذه الانماط التي تتمثل في الحضارة

التركيبية ، عناصر ثابتة لا تتبدل في الدراسات التي تدور حول تكوين الشخصية . فهي بمثابة اساس موحد يمكن ان ندرس ونقارن على ضوئه استجابات افراد المجتمع المختلفة واشكال شخصياتهم المتكاملة . وتكوين مثل هذا المرجع سند لا غنى لنا عنه في دراسات الشخصية .

يمكننا ان نوضح اكثر من هذا علاقة الانماط الحضارية بالخبرة العامة بين افراد مجتمع خاص بايراد مثل معين. فلنفترض ان مجتمعاً من المجتمعات جرى على اطعام الرضيع في كل مرة يبكي فيها وعدم اطعامه الا اذا بكى . فاذا اخذنا بعين الاعتبار الانحرافات عن مثل هذه العادة او النمط الحضاري التي تنبثق حتماً عن مقتضيات الحياة اليومية ، يمكننا ان نتأكد من ان تغذية الاطفال لم تتم دائماً عقب بكائهم . لكن يمكن القول بانهم جميعاً اكلوا في اكثر المناسبات التي بكوا فيها ، وانهم لم يأكلوا في حالة عدم البكاء . وعليه تكون قد سنحت لهم جميعاً فرص كثيرة لاكتساب عادة البكاء بوصفها الاستجابة الاولى التي تؤدي الى سد جوعهم. وتتميز تجاربهم بخصائص مشتركة كثيرة، بالرغم من كل العوامل المتغيرة في النمط الحضاري وفي الفروق الفردية . ويتشابه افراد هذا المجتمع من هذا الوجه الى حد اكبر بكثير من التشابه بينهم وبين افراد مجتمع آخر يخضع فيه النمط الحضاري لتغذية الاطفال لنظام ثابت صارم، ويقابل فيه البكاء اما بالتجاهل او بالعقاب .

ولا تنحصر فائدة الصور الحضارية التركيبية عند دراسة الشخصية في تلخيص المحيط الاجتماعي الحضاري المشترك بين افراد المجتمع . فالانماط التي تشتمل عليها الصورة التركيبية تساعدنا كثيراً ايضاً عند تشخيص الشخصيات الفردية . ويمثل كل نمط تركيبي طرازاً من السلوك المختلف لعدد من الافراد في حالة معينة . وبالرغم من ان تصرفات الفرد المختلفة في هـــذه الحالة بعينها لا تخرج في العادة عن نطاق النمط الحضاري الحقيقي فاننا نجد انها يندر ان تكشف لنا مدى هذا النطاق كله . فهي تطابق جزءاً معيناً منه فقط ، وقد يختلف الطراز المفرد في هذا الجزء اختلافاً كبيراً عن طراز النمط الحضاري بمجموعه . والفرق بين هذا الطراز المفرد وبين صورة الحضارة التركيبية يعكس التسوية التي يتعـين على كل فرد ان يحققها بين الانماط الحضارية لمجتمعه وبين ميوله الخاصة . وقد لا تكون مثل هذه الانحرافات الفردية ذات اهمية كبيرة لتشخيص طراز الشخصية ما دامت لا توجد الا بالنسبة لبضعة انماط حضارية . فاذا تطلب النمط من احد الناس تقديم هبـــات كبيرة في مناسبات عديدة الى والد امرأته بينما هو في الواقع لا يقدم الا القليل منها ، فليس لسلوكه من معنى سوى انه يكرهه او انه يأمل في انهاء زواجه . ولكن اذا تبين من طرز مجالات سلوك الفرد انه ينحرف باستمرار عن عدد كبير من انماط الحضارة التركيبية امكن لنا الافتراض بان اتجاه هذه الانحرافات يعكس صفة معينة من صفات ذلك الفرد . فاذا وجدنا صاحبنا يتهرب لا من مسئولياته نحو والد زوجته

فحسب ، بــل ومن اكثر الحالات الاخرى التي تستدعي بذل المال فهو دليل اكيد على بخله . والواقع اننا جميعاً نستفيد، بوعي او بدون وعي من هذا الانحراف عن طراز النمط الحضاري في احكامنا اليومية على شخصيات الآخرين . فبالرغم من اننـــا لا نعبر عن معايير السلوك على ضوء النمط الحضاري فاننا نستطيع معرفة المعايير ونميز الانحرافات ونصنف الآخرين على اساسها بسرعة .

وقد يكون من المناسب قبل ان نختم هذا البحث في الحضارة ان نذكر خاصة اخرى من خصائص النمـــط الحضاري . فبالاضافة الى انماط الحضارة الحقيقية وانماط الحضارة التركيبية القائمة على اسس من مشاهدة الباحثين للسلوك وتصورهم له، فان الحضارات كلها تحتوي على عدد معين من الانماط التي نستطيع ان ندعوها **بالانماط المثالية** (Ideal Patterns) وهي تجريدات من صنع افراد المجتمع انفسهم، تمثل اجماع قسم من افراد المجتمع على السلوك الذي ينبغي للفرد أن يتبعه في حالات معيـــنة . ويختلف مدى تطوير هذه الانماط المثالية باختلاف المجتمعات ، فمن الجماعات من هم اشد وعياً بالحضارة واكثر ميلاً الى اطلاق الاحكام العامة على السلوك من غيرهم. على انه ليست هناك جماعة تتخذ لنفسها انماطاً مثالية للسلوك تلائم جميع الحالات . وحتى في اكثر المجتمعات وعياً بالحضارة وقدرة على التحليل الفعلي ، يجد الباحث دائماً ان المتحدثين يعجزون عن تعيـــين السلوك

الملائم لحالة من الحالات ويلجأون الى رواية ما حدث في مختلف المناسبات التي نشأت فيها تلك الحالة . ويزيد افتقارنا هذا الى الانماط المثالية في الدهشة لان المقابلة بين الروايات تكشف عادة عن وجود نمط حضاري حقيقي ذي طراز من التغير معترف به. وبكلمة عامة يبدو ان الانماط المثالية تنشأ في اكثر الاحيان بالنسبة لتلك الحالات التي يعتبرها المجتمع ذات اهمية اساسية ، وبخاصة تلك الحالات التي يحدث فيها تفاعل بين افراد ذوي مراكز مختلفة في النظام الاجتماعي .

وقد لا تتفق الانماط المثالية كما هي الحال في الواقع مع الانماط التركيبية التي يكونها الباحث من مشاهداته للسلوك الفعلي . وفي بعض الحالات قد لا يعكس عدم الاتفاق هذا الا قصور النمط المثالي في تتبع واقع الحضارة المتغيرة . فالنمط المثالي يستند الى ذكرياتنا عن الاشياء اكثر مما يستند الى مشاهداتنا الحالية لها . ويحتمل في حالات اخرى الا يكون النمط المثالي قد وافق طراز الحضارة الحقيقية . فهو بمثابة امنية تنطوي على قيمة نحترمها عندما نخالفها اكثر مما نحترمها لدى الاخذ بها. وفي كلتا الحالتين يكون للأنماط بعض التأثير في اتباع المعايير لانها تقلل من الشطط في مخالفة المقاييس التي ترسمها . على ان الانماط المثالية هذه تفقد بعض تأثيرها عندما يتم تبلورها والتعبير عنها . ويصير لها وجود مستقل ، وبدلاً من ان تمثل الاستجابة المناسبة لحالة معينة تصبح هي نفسها الاستجابة

المناسبة لحالة معينة . فنمطنا المثالي في قولنا : « ان الاطفال الصغار يحبون بعضهم بعضاً » يبقى بوصفه استجابة كلامية لذكرياتنا الشخصية ومشاهداتنا اليومية التي تناقض ذلك القول . ومع ان مثل هذه الامثال الكلامية انماط قائمة في الحضارة الحقيقية ، فانه ينبغي تصنيفها مع التراث الادبي للمجتمع ، اذ ليس فيها من دلالة على السلوك الفعلي لافراده اكثر مما في الاقوال والقصص الشعبية . ومن المستحسن جداً ، اذن ، ان يعمد اولئك الذين يحاولون وصف الحضارات الى التمييز بوضوح بين صور الحضارة التركيبية التي يكونونها بانفسهم على اساس مشاهداتهم وبين الانماط المثالية للحضارة التي ينقلها اليهم افراد المجتمع شفاهاً بغض النظر عن صدقهم وسلامة قصدهم .

وقد يشعر القراء الذين تستأثر الدراسة النفسية للشخصية بالقسم الاكبر من اهتمامهم باننا قد اسهبنا في تحليلنا لمفهوم الحضارة ، وذلك لان الكثير منه لا يتصل كثيراً بالابحاث التي تمت داخل مجتمعنا وحضارتنا . فالباحث يعرف انماط السلوك العادي في مجتمعنا ويستطيع كشف الانحرافات عنها بشكل لا تبقى معه حاجة الى التجريد او صوغ المفاهيم . وعلى كل حال ففي اللحظة التي يتعدى فيها البحث حدود هذا الحقل الضيق نسبياً ، يصبح تفهم المفاهيم الحضارية من الامور الضرورية .





الفصل الثالث

البناء الاجتماعى والمشاركة الحضارية

البناء الاجتماعي والمشاركة الحضارية

لقد اكدنا في الفصلين السابقين على ان المجتمعات لا الافراد هي الوحدات الفعالة في معركة تنازع البقاء التي يخوضها جنسنا البشري ، وان المجتمعات بكاملها هي التي تحمل الحضارات وتحافظ على استمرارها . واشرنا كذلك الى انه لا يتأتى لاي فرد ان يعرف حضارة مجتمعه بكاملها، وانه لا ينتظر من احد ان يعكس كل انماطها المتعددة في سلوكه الظاهر. على ان مشاركة اي فـــرد في حضارة مجتمعه ليست بنت الصدفة . فالجانب الحضاري الظاهر منها يتقرر في الاساس تقريراً كاملاً تقريباً بالمكانة التي يحتلها الفرد في مجتمعه وبالتدريب الذي ظفر به تمهيداً لاحتلاله هذه المكانة . وعليه ينبغي ان يدرس سلوك الفرد لا بالنظر الى حضارة مجتمعه الكلية فحسب، بل وبالنظر الى المطالب الحضارية الخاصة التي يطالبه بها مجتمعه لانه يحتل تلك المكانة . ومن ثم تنتظر المجتمعات كلها من الرجال سلوكاً مختلفاً عن سلوك النساء، ولا يستطيع المرء ان يفهم سلوك رجل بعينه او امرأة بعينها بدون ان يعرف ما ينتظر من كل منهما .

ومعظم الباحثين في الشخصية في الوقت الحاضر يدركون تماماً هذه الحقائق كما يدركون فائدة الحصول على صورة واضحة

عن بناء المجتمع تمهيداً لتحديد البيئات الاجتماعية الحضارية لافراده . واعتقد في الوقت ذاته، بانه من الانصاف القول ان غالبيتهم تجد صعوبة في استخدام المواد التي هيأتها لها اكثر الدراسات الاجتماعية لذلك الغرض . ويبدو ان اكثر الصعوبات تنجم عن اخفاق كثيرين من علماء الاجتماع في التمييز بجلاء بين المجتمع وحضارته . فالمجتمع جماعة منظمة من الناس او مجموعة من الافراد الذين تعلموا العمل معاً . اما الحضارة فهي طائفة منظمة من انماط السلوك وما يجري مجراه . وبالرغم من ان العلاقات بين المجتمع وحضارته وثيقة ومتعددة فان كلاً منهما مستقل ومتميز عن الآخر ويمثل ظواهر من نوع مختلف . ورغم هذا فان عدداً كبيراً من علماء الاجتماع يصفون المجتمعات على اساس مؤسساتها ونظمها ويستعملون اصطلاح **البناء الاجتماعي** (Social Structure) للدلالة على ترابط المؤسسات . والواقع هو ان المؤسسة (او النظام) شكل من الانماط الحضارية يؤدي كله وظائف معينة ، ويقوم الترابط الرئيسي بين مثل هذه الاشكال في ميادين التنظيم او التكامل الحضاري . وبالرغم من ان دراسة المجتمع من زاوية مؤسساته تساعد على تحقيق اغراض معينة ، فمن شأنها ان تهمل العلاقة بين المؤسسات والافراد . ويستحيل في كثير من الاحيان ان نتوصل بالاستناد الى الاوصاف المبنية على دراسة المؤسسات الى ذلك الصنف من الناس الذين يشتركون في مؤسسة معينة او الى تعيين علاقة اي فرد منهم بها . ولكي تصبح صور البناء الاجتماعي ذات فائدة للذين

الاطفال ثم بتدريبهم واعدادهم لاحتلال اماكنهم بوصفهم اعضاء عاملين في هذا الجهاز المنظم . وبالرغم من ان نوعاً آخر من الجماعات المنظمة -- وهو العائلة -- قد يكون اقدم من المجتمع الذي وصفناه، فلا ريب في ان هذا قديم قدم وجودنا كنوع بشري متميز . فالمجتمع والعائلة يوجدان حيثما عاش الناس . ويوجد بين افراد هذا النوع من المجتمعات العديد من الميول والمصالح المشتركة وشعور قوي بالشبه مبني على التعارف والتفاعل الشخصيين . فهم يقفون متحدين في وجه الغرباء ويتقاسمون الأعمال الضرورية لمصلحة الجماعة فيما بينهم وحسب نمط محدد يؤكد ويضمن لجميع افراد الجماعة المساهمة في الخدمات ، والمشاركة في المنافع العائدة . واخيراً، وبالرغم من الفروق في السلوك الناجمة عن اختلاف الادوار، فان جميع اعضاء المجتمع يشاركون في سلسلة طويلة من الانماط الحضارية ، وبخاصة الانماط المستترة، ويعترفون بنظام مشترك للقيم . وان نقل هذه النواة الكاملة للحضارة من جيل الى جيل هو الذي يولد التفاهم المشترك بين الافراد ويمكّن المجتمع من البقاء بعد تغير افراده .

ومن الحقائق بالغة الاهمية انه حتى هذه المجتمعات البسيطة الاوليـــة ليست فاقدة تماماً للشكل، فهي اشكال لا للافراد فحسب ، بل وللجماعات الصغيرة من الافراد المنظمة تنظيماً داخلياً . ويبدو ان الناس يشعرون بحاجة ملحة للطمأنينة العاطفية التي يحصلون عليها بتكيفهم بصورة وثيقة وعلى نطاق

واسع مع الافراد الآخرين . كما ان لهم قدرة كبيرة على التعاون في سبيل تحقيق اهداف محدودة معينة واندماجهم في وحدات لها وظائف خاصة . وحتى في ابسط المجتمعات نجد اصدقاء وطوائف من العمال تجمع عدداً معيناً من الناس، هم من نوع خاص. كما نجد طائفـــة من العائلات تدمج عدداً قليلاً من الافراد من الجنسين ومن مختلف الاعمار في وحدات متكاملة. وعضوية الفرد في مثل هذه الوحدات، وبخاصة الوحدات العائلية، عامل مهم في توجيهه بالنسبة للمجتمع ولحضارته . وفي الوقت الذي تحقق له الوحدة رغبات خاصة فانها تفرض عليه التزامات خاصة يتحمل بموجبها قسطه من المسئولية الجماعية تجاه المجتمع الاكبر ومن الحقوق والواجبات المتبادلة القائمة بين اعضاء الوحدة ذاتها . فبينما يحصل الرجل على فوائد شخصية عديدة من الزواج وانشاء عائلة خاصة به، فانه يجعل نفسه مسئولاً قانونياً عن ديون زوجه وعن الاضرار التي يقوم بها اولاده، ويحمل على عاتقه بعض الالتزامات نحو امرأته واطفاله .

ويتجلى هذا النمط، الذي يمكن وصفه بالتنظيم القائم على الخلايا، في كل مراحل التكامل الاجتماعي . فكل مجتمع ابتداء من العصبة البدائية حتى الدولة الحديثة، هو في الحقيقة تكتل لجماعات صغيرة منظمة . وهكذا تكون العصبة شكلاً متكاملاً (Configuration) للاسرة او الاصدقاء او جماعات العمال، وتكون القبيلة شكلاً متكاملاً للعصبة ، وتكون الدولة في

ابسط اشكالها شكلاً متكاملاً للقبائل التي جمع بينها الفتح او الاتحاد وهكذا . ومن الممكن ان نلاحظ مبدأ التنظيم هذا في اكثر المجتمعات الحديثة تعقيداً اللهم الا في بعض العهود الطارئة التي يعم فيها الاضطراب والانحلال . ومهما يكن من امر فان هذه العهود عهود عابرة دائماً . ففي المدن التي تنشأ للصناعات الحربية لا نجد في الابتداء اشكالاً اجتماعية متكاملة بين العامل المتنقل والمجتمع المحلي بكامله، ولكن من المؤكد انها تنشأ مع الايام . ويترتب على الانتماء للنقابات والمحافل والجماعات الدينية وما الى ذلك عزل عدد من الافراد عن كافة المجتمع وحشدهم وتهيئة الفرص لهم للاندماج في وحدات اجتماعية وظيفية .

اما في المجتمعات الحديثة الاكثر استقراراً، فان الجماعات المحلية والطبقات الاجتماعية هي التي تؤدي وظائف المجتمع البسيط الاولى بالنسبة لاندماج الافراد اندماجاً متكاملاً ونقل الحضارة . ونحن لا نجد حتى في مجتمع كالذي نعيش فيه جماعتين لهما حضارتان متماثلتان تماماً . اذ نجد غالباً وراء اوجه الشبه الظاهرة الناجمة عن الانتاج بالجملة وبعض الوسائل كالراديو والسينما اختلافات بارزة في وجهات النظر وفي القيم . وقد تؤدي طبقات المجتمع ايضاً وظائف المجتمعات الاولية في داخل الشكل المتكامل العام، وبخاصة اذا كانت قديمة العهد ولها عضوية واضحة محددة . اذ تنزع كل طبقة الى ان تتخذ لنفسها مجموعة خاصة من الانماط الحضارية المشتركة الموروثة، وان تعين لاعضائها التزامات

خاصـــة . كما تنزع الى ان تستأثر لاعضائها ببعض النشاطات الضرورية لبقاء الشكل المتكامل والواسع وتجعلها جزءاً من حضارتها المميزة . ولهذا ينتظر من رجال الطبقات الرفيعة في المجتمعات الاوروبية ان يمارسوا القيادة في الحرب وان يُلاموا على الجبن اكثر مما يلام عليه افراد الطبقة الدنيا .

ومما يستلفت النظر حقاً ان وجود مجتمعات اولية قامت على اساس طبقي لا يتعارض باي شكل من الاشكال مع وجود درجة كبيرة من حرية الحركة الفردية ضمن نطاق البناء الطبقي. ويبدو ان الشرط الرئيسي لاستمرار مجتمع طبقي هو ان يتمتع بقسط لا بأس به من التنظيم الداخلي والحضارة المتميزة المحددة المعالم . فالخطوة الاولى التي يخطوها شخص يسعى للانتساب الى طبقة اعلى من طبقته في اي مجتمع من المجتمعات هي ان يتخذ انماط الحضارة الظاهرة لتلك الطبقة وان يتخلى عن انماطـــه الخاصة به . ففي بريطانيا، التي قال عنها احدهم بانها آخر مكان في العالم لكلمةِ « السيدِ » فيه مدلول محدد كمدلول كلمة « لحم » مثلاً، اقول في بريطانيا اساليب خاصة لتدريب افراد الطبقة الدنيا على اكتساب انماط الطبقة العليا . فالفرد الذي يجمع مالاً كافياً للعيش في مستوى الطبقة العليا لا ينجح في الغالب في تمثل الانماط المميزة للطبقة العليا . فلكي يفعل ذلك عليه ان يغير حتى طريقة كلامه . على انه يستطيع ان يرسل ابنه الى احدى

المدارس الخاصة فيخرج منها الابن على نحو لا يمكن تمييزه عن اولاد الطبقة العليا العريقة .

وتشترك جميع المجتمعات الاولية، بغض النظر عما اذا كانت تقوم وحدها او تعمل وحدات في تكتلات متماسكة اكبر منها، في خصائص معينة من التنظيم . فهي جميعاً تقسم اعضاءها الى فئات مختلفة بحسب اختلاف الجنس والسن . كما انها جميعاً تخص بعض الافراد او الجماعات بحرف خاصة، وتدخل في تنظيمها نوعـــين من الوحدات الصغرى المنظمة تنظيماً داخلياً وهما : ١) جماعات عائلية تقوم العضوية فيها على اساس العلاقات البيولوجية (النسب)، حقيقية كانت او افتراضية. ٢) جماعات متحدة تقوم العضوية فيها على اساس التجانس والمصالح المشتركة، او احدهما . واخيراً فان كل المجتمعات تنزع الى ترتيب كل من اعضائها والوحدات التنظيمية المختلفة فيها في نظام سلمي تتفاوت بحسبه اهمية الفرد او الوحدة الاجتماعية كما يتفاوت تبعاً لذلك نفوذ الواحد منها . وقد توسع بعض المجتمعات الاولية هذه التنظيمات الاساسية بعدة طرق . فنرى ان معظم الجماعات البولونيزية تسبغ قيمة ارفع على المولود البكر، بغض النظر عن جنسه، كما تخصص له وظائف اجتماعية معينة . وعلى كل حال ، فان معظم وجوه التنظيم ، في اي مجتمع اولي ، يمكن تحليلها ووصفها على اساس انماط البناء الاساسية التي ذكرناها .

اما في الاشكال الاجتماعية المتكاملة التي تشمل عدة مجتمعات

اولية فان البناء يصبح اكثر تعقيداً . لكن المبادىء الاساسية ذاتها تظل سارية المفعول . وتحافـــظ المجتمعات الاولية على كياناتها المستقلة ، لكنها تفرض عليها انماطاً جديدة متكيفة مع الشكل المتكامل العام . على ان العضوية في مختلف الوحـــدات الناجمة عن التنظيم العام الشامل تجاوز حدود تلك المجتمعات الاولية ، وتتخـــذ الوحدات ذاتها وظائف تكاملية بالنسبة للشكل المتكامل العام بأكمله . وعلى هذا ينضم للفريق المؤيـد للحرب او الجمعية السرية او اتحاد العائلات افراد من عـــدة مجتمعات اولية مختلفة ، الامر الذي يؤدي الى تقريب هذه المجتمعات من بعضهـــا ويساعدها على تأدية وظائفها كأجزاء اصيلة من المجموع الاكبر .

وتبدو في نشوء عامة الانماط التنظيمية نزعة قوية الى نقــل طرق التنظيم الشاملة من المجتمعات الاوليـــة الى التجمعات الكبرى . ويتم هذا في بعض الاحيان عن وعي وارادة كما هي الحال في عصبة آروكوا . اما في اكثر الاحيان فالمسألة لا تعدو كونها عملية لاشعورية ومحاولة لاستخدام انماط مألوفة في حالات شبيهة من بعض الوجوه بتلك التي استخدمت فيها الانماط في الاصل . وهكذا فاننا نكاد نجد دائماً ان تنظيم العشيرة الذي يجاوز تخوم المجتمع الاولي داخـــل القبيلة يشترك في كثير من خصائصه مع التنظيمات العائلية الموجودة داخل هذه المجتمعات وتمثل مقاييس عضوية العشيرة في العادة امتداداً لمفاهيم القرابة

الاساسية في عضوية العائلة . وتراعى هذه العلاقات ذاتها ضمن حدود معينة في عضوية العشيرة والعائلة ، وتأخذ الحقوق والواجبات المتبادلة بين اعضاء العشيرة شكل النمط المعروف بين اعضاء العائلة بالرغم من ان الالتزامات تصبح اخف بعض الشيء. ونجد في اغلب الاحيان ان اي تكتل يجاوز تخوم المجتمع الاولى يتفق الى حد كبير من حيث الغاية وانماط التنظيم مع ما يقابلها في المجتمعات الاولية . واخيراً فان الجماعات او الطبقات التي تدخل في نطاق المجتمع الاكبر تنتظم عادة في نظام سُلـّمي وتسهم في وضع سياسة المجتمع على نحو يتناسب وموضعها في ذلك السُلـّم .

واذا عدنا الى الخصائص الملازمة لبناء المجتمعات الاولية ، نجد ان تقسيم اعضاء المجتمع الى فئات على اساس السن والجنس قد يكون بالغ الاهمية خاصة في تقرير مشاركة الفرد في الحضارة. والواقع ان اغلبية الاعمال والوظائف في كل المجتمعات تسند لاعضاء فئة او فئات قليلة يجمع بين افرادها الجنس والعمر ويحرم منها غيرهم . وحتى في الاعمال التي تتطلب اختصاصاً كبيراً ، والتي يمكن اعتبارها بحد ذاتها اساساً لتمييز بعض الجماعات من الافراد عن باقي المجتمع بوجه عام ، نجد العضوية في فئة من سن وجنس معينين شرطاً من شروط المشاركة التامة في مثل هذه الاعمال . فلدى الجماعة التي نشأت فيها ، لم يكن الناس يثقون في الطبيب الا اذا كان في سن الرجولة المكتملة او الشيخوخة .

اما الاطباء الشباب حديثو التخرج من معاهد الطب فكانوا موضع شك وريبة تجعلهم يحاولون دائماً ان يقلدوا المسنين . ولقد اخبرني طبيب صديق وقد داهمه الصلع باكراً في العقد الثالث من عمره ، ان ذلك كان من اهم مقومات مهنته . فمثل هذه الجماعات ذات الاختصاص تختلف عن زميلاتها من الفئات المصنفة بحسب السن والجنس من حيث العدة الفنية ومن حيث قلة اعضائها . وعلى هذا نجد في مجتمعنا ان الذين يقومون باصلاح المواسير هم جميعاً من الذكور ، لكن الذكور ليسوا جميعاً عمال مواسير . ونجد ان جميع كتبة الاختزال تقريباً (باستثناء المحاكم) من النساء ، ولكن النساء لسن جميعاً كاتبات اختزال .

والى جانب تعيين الوظائف والاعمال فان العضوية في جماعة ما يجمع افرادها السن والجنس ، تزود الفرد مباشرة بسلسلة طويلة من انماط السلوك المحمودة في علاقاته مع اعضاء جماعات مماثلة اخرى . وتصلح هذه الانماط بغض النظر عما اذا كان يعرف الافراد الآخرين او لا يعرفهم . وكل ما يحتاج اليه هو ان يتعرف الى الفئة التي ينتمي اليها الشخص الآخر لكي يعين السلوك الواجب اتباعه ونوع السلوك الذي ينتظره منه . واخيراً ، هنالك ايضاً نزوع عام الى اسناد انصبة مختلفة من حضارة المجتمع المستترة لفئات مصنفة بحسب السن والجنس ، ينتظر ان تكون لهم ضروب مختلفة من المعرفة ، وانظمة مختلفة من القيم . ولذا فاننا نفترض في الرجال في مجتمعنا ان يعرفوا عن الآلات

اكثر مما تعرفه النساء وهو نتيجة طبيعية لممارستهم حرفاً معينة . على اننا نتوقع منهم في المستويات الدنيا من مجتمعنا على الاقل ، ان يكونوا اكثر قدرة على الحكم على حالة اللحم واقـــدر على اختيار القطع الصالحة منه عند الجزار . ومن الامور البدهية ان تكون النساء اللواتي يقمن باكبر قسط من الشراء اكثر اهلية من الرجال لاختيار اللحم الطيب ، ويبدو ان تفضيل الرجال لدى اختيار اللحم يرجع الى المجتمعات الريفية السابقة عندما كان الرجال يقومون بذبح الحيوانات لانفسهم في مزارعهم الخاصة . اما فيما يتعلق بانظمة القيم فلدينا امثلة على ذلـــك في استعمالنا كلمة صبياني للدلالة على بعض الرغبات وبعض الانماط من الاستجابات العاطفية وايماننا العميق بان النساء قد فطرن على اللطافة وانهن اقل عدوانية من الرجال رغم الخبرة الغالبة التي تدل على عكس ذلك .

وينبغي ان يعتبر تقسيم اعضاء المجتمع الى فئات حسب السن والجنس على انه في الاساس وسيلة تصنيف اولية ، فالتكتلات التي تنشأ على هذا النحو ليست باي حال من الاحوال وحدات وظيفية منظمة بالرغم من ان اعضاء فئة من الفئات قد يستطيعون القيام بعمل موحد عندما يدركون ان مصالحهم المشتركة معرضة للخطر . وباستطاعة اكثر المعلمين والآباء ان يذكروا امثلة على قدرة الاولاد في بعض الظروف على التماسك الجماعي . وتتبادر رواية ليزيستراتا الى الذهن ، ولكن اولئك الذين يتذكرون

الرواية يتذكرون ايضاً السرعة التي انفرط فيها عقد الفئة عندما تصادمت مصالح افرادها .

والاساس الذي ننطلق منه في تصنيف الافراد حسب اساس السن والجنس وفي تبريره عملياً ينبثق من اختـــلاف امكانات الرجال والنساء في مختلف الاعمار . ومن الواضح كذلك ان الرجل العادي اقوى من الولد العادي وباستطاعته ان يقوم باعمال معينة لا يستطيع الولد القيام بها . ومن الواضح ايضاً ان للمرأة امكانات للتناسل والعناية بالاطفال لا يشاركها فيهـــا اي من افراد الفئات الاخرى . ومع ذلك نجد انه حتى فئات السن والجنس التي تعترف بها كل المجتمعات تعكس اموراً اكثر من مجرد الصفات البيولوجية البسيطة . هنالك سبع فئات على الاقل من هذا النوع معترف بها في كل مكان وهي : الرضيع ، والولد ، والبنت ، والرجل ، والمرأة ، والرجل المسن ، والمرأة المسنة ، والواقع ان الاولاد والبنات في المرحلة السابقة للمراهقة لا يختلفون الا قليـــلاً من حيث القوة والنشاط ، وبامكانهم المشاركة في كل انماط الحضارة ذاتها تقريباً . ويتدرب الولد على دوره كما يتدرب الرجل وتتدرب البنت على دورها كما تتدرب المرأة . ولا يوجد كذلك اختلاف كبير بين الرجـــال المسنين والنساء المسنات من حيث امكاناتهم الجسمية . والحق ان النساء المسنات اقوى واكثر نشاطاً في الغالب من الرجـــال في السن ذاتها. وعلى كل حال فان كل جنس يمضي حياته في اكتساب دربة

خاصة ، وفي ممارسة مهاراته الخاصة التي اسندت اليه بموجب توزيع العمل في المجتمع ويتعلم الافراد ان يتصرفوا كالرجال او كالنساء ويثابرون على ذلك حتى النهاية . ولعله من المفيـــد الاشارة بهذه المناسبة الى ان هنالك عدداً كبيراً من المجتمعات يضعف فيها التمييز بين ادوار الرجال وادوار النساء عندمـــا تجاوز المرأة سن اليأس ويسمح في الغالب للنساء المسنات بالمشاركة الفعلية في بعض الاحتفالات والشعائر الدينية التي كانت تحرم عليهن قبل ذلك ، كما يصبح باستطاعتهن احتلال مراكز ذات سلطات داخل الجماعات العائلية شبيهة الى حد كبير بالمراكز التي يحتلها الرجل وهو اقـــل سناً . وبالرغم من ان كل المجتمعات تعترف بالفئات السبع التي ذكرناها آنفاً فان عدداً من المجتمعات يوسع نطاقها بمختلف الطرق . فكل فئة من الفئات الرئيسية قابلة للتقسيم الى فئات صغرى عديدة ، فيمكن مثلاً اعتبار المراهقين وعدم اعتبارهم جماعة مستقلة متميزة يحق لها اتخاذ انماط حضارية خاصة . فالمراهقون يتميزون عن الاطفال والبالغين ببعض الصفات الفيسيولوجية الخاصة . والاساليب المختلفة التي تتبعها المجتمعات لمعالجة شئونهم ذات اهمية كبيرة للذين يدرسون الشخصية ، وبخاصة بالنظر الى قلة النجاح الذي حالف جهودنا في هذا السبيل . اما في المجتمعات التي تصنف المراهقين في فئة مستقلة منفردة وتسند لهم اعمالاً ملائمة لاوضاعهم ، فان مرحلة المراهقة تمر دون توتر او بقليل منه ، ويتم الانتقال من ادوار الطفولة الى ادوار الرجال دون صدمات قوية للشخصية . اما المجتمعات التي

لا تكترث بنواحي المراهقة الخاصة ، فقد تختار لمعالجة الوضع احد طريقين: فقد توسع فئة الطفولة وما يسند اليها من اتجاهات وانماط من السلوك الظاهر وترفع بحيث تشمل المراهقين ، وقد ترجع فئة البالغين الى الوراء بحيث تشملهم . وفي كلتا الحالتين يصبح المراهق مشكلة بالنسبة لنفسه وبالنسبة للآخرين . فاذا كان متوقعاً منه ان يلتزم انماط الطفولة من طاعة واتكال ، فقد يغدو اما طفلاً سيئاً متمرداً على السلطة او يذعن لها ويمكّن الانماط من السيطرة عليه الى درجة يجد معها صعوبة كبيرة في تحمل مسئوليات الكبار وقدرتهم على المبادرة عندما يحين الوقت لذلك . واذا كان منتظراً منه ان يتبع انماط الكبار منذ سن الرشد فانه يجد نفسه مدعواً لاتباع ضروب من السلوك ترهق قدراته الى اقصى حد حتى وان هي لم تكن فوق طاقته . وبالرغم من ان المجتمع قد يعتبره رجلاً من الناحية الرسمية ، الا انه يظل ، ولفترة طويلة ، رجلاً من الدرجة الثانية ، يحتل مركزاً يقل عن مركز معظم اعضاء الفئة الآخرين ويبقى من ثم عرضة لكل انواع الاخفاق والفشل . لعل الشيء الوحيد الذي هو أسوأ من كلتا الوسيلتين هو ان نظل على موقفنا من هذه القضية وان نترك دور المراهقين الاجتماعي مغلفاً بالشك . فنحن نتطلب منهم طاعة الاطفال وخضوعهم حيناً ، والمبادرة وتحمل المسئوليات الشخصية التي نعرفها في الكبار حيناً آخر . اما النتائج الناجمة من معالجة الوضع بهذه الطريقة المتناقضة فمعروفة جيداً لدى الذين يدرسون علم الشخصية ، ولا تحتاج الى مناقشة .

وان اسناد انماط حضارية خاصة الى الافراد على اساس المهن التي تخصصوا فيها هو على وجه العموم امر محدود بعض الشيء ، ولا يمكن مقابلته من حيث الاتساع باسناد هـــذه الانماط الى الافراد على اساس عضويتهم في جماعات تشترط السن والجنس . فالانماط التي تسند على النحو الاول هي في العادة امتدادات صغرى للانماط الخاصة بفئة السن والجنس التي ترتبط بها المهنة التخصصية . وبالرغم من ان مثل هذه الانماط المهنية تتضمن بالضرورة المهارات والمعرفة المرتبطة بالاختصاص فليس من المحتم ان تقتصر عليها . فاذا ذكرنا اكثر الحالات شيوعاً نجد ان الذين يعملون في الشئون الدينية يتميزون عادة عن بقية افراد فئة السن والجنس التي ينتمون اليها باشكال مقررة من الثياب ومن السلوك المتوقع من كل واحـــد منهم ان يلتزمها حتى ولو كان خارج وظيفته . ويدرك كل واحد في مجتمعنا معنى الياقة المقلوبة ، ويشعر معظم البروتستانت انه لا يليق برجل الدين ان يدخن او يشرب المسكر حتى ولو شربه باعتدال وخارج نطاق العمـــل الرسمي . ويمكن كذلك ان تنسب مواقف وخصائص شخصية معينة الى الافراد على اساس حرفهم الخاصة . ومع ان هذه الامور المنسوبة لهم شبيهة بالانماط الحضارية المثالية وقد لا تكون لها علاقة كبيرة بالواقع ، فانها غالباً ما تنعكس في سلوك الآخرين تجاه اصحاب الاختصاص هؤلاء . فأجدادنا مثلاً اعتبروا جميع الجزارين اشخاصاً ذوي قلوب قاسية متعطشة للدم ، وفي كثير من المجتمعات كان الجزارون والاطباء يمنعون من العمل محلفين

في القضايا التي قد يحكم فيها بالاعدام . ثم ان جبن الخياطين موضوع خصب للقصص الشعبية في شمالي اوروبا ويستطيع كل من قرأ قصص « جرم » الخيالية (Grimm's Fairy Tales) في طفولته ، وبعضها محزن حقاً ، ان يتذكر الخياط الصغير في قصة « سبعة بضربة واحدة » .

وليس لاسناد هذه الامور للافراد اهمية عظيمة لدى دراسة افراد المجتمعات المعروفة بالبدائية لان انواع الاختصاص وعدد المختصين فيها قليل جداً . وعلى كلٍّ فان الاختصاص المهني يزداد بسرعة كلما ازداد تعقد الحضارة ، ويصل ذروته في المدنيات الشبيهة بمدنيتنا . ففي هذه الاحوال تلعب الانماط والاتجاهات المنسوبة للاختصاصيين من صنف خاص دوراً مهماً في اختيار الفرد لمهنة ذات اختصاص معين . وهذا بلا شك يقترن بالحرية الكبيرة في اختيار المهن التي تميز مجتمعنا في الوقت الحاضر . فالرجل الذي يشعر انه سيرضى رضى تاماً عن عمله في المحاسبة او شحن البضائع تظل امامه فرصة مواتية لاختيار احدى المهنتين . ولكن في الحالات التي لا يسمح فيها للفرد بممارسة مثل هذا الاختيار فان السلوك والاتجاهات التي تسند الى الجماعة المختصة التي يجد نفسه فيها قد تكون غير ملائمة له وغالباً ما تصبح سبباً في عدم التكيف وفي الاضطرابات النفسية . وقد وجد ابن استاذ كبير من اصدقائي ، بعد ان دفع دفعاً الى احتلال وظيفة جامعية ، ان مستلزمات الكرسي الجامعية ثقيلة

على النفس الى درجة اضطر معها الى الهرب في منتصف الفصل الدراسي .

والعضوية في الجماعات العائلية في العادة قليلة الاهمية في تقرير مهنة الفرد رغم انه ليس نادراً ان تنتقل المهارات اليدوية الدقيقة وبخاصة المهارات المربحة التي تتطلب الوقوف على اسرار المهنة ، من الاباء الى الابناء . ويبدو ان العمل المنسوب الى مختلف الافراد بموجب تقسيم العمل داخل العائلة يخضع في الاساس لعامل السن والجنس لا لمكانة الفرد في البناء العائلي . كما ان العضوية العائلية قليلة الاهمية ايضاً في تقرير السلوك الظاهر لاعضاء العائلة نحو غيرهم الا عندما يتصل السلوك بافراد معينين او اعضاء ينتمون الى عائلة اخرى بينها وبين اسرتهم علاقات خاصة ودية او عدائية . ولكنها مع ذلك تزودنا باساس ننسب بموجبه الى اعضائها مواقف معينة تجاه من هم خارج نطاقها بوجه عام ، لا سيما وان مصالح هؤلاء تعتبر ثانوية بالنسبة لمصالح اعضاء العائلة . واخيراً قد تفرض هذه العضوية على الفرد سلوكاً خاصاً في المجتمعات التي تتخذ انماطاً من المسئولية المشتركة بالنسبة لما قد يفعله اي عضو من اعضاء العائلة .

كل هذه النواحي من اسناد الجوانب الحضارية هي على الارجح طارئة فيما يختص بالتنظيم العائلي . فالوظيفة الرئيسية التي تسند الى الاسرة هي تزويد الفرد بانماط من السلوك تجاه

غيره من افراد العائلة نفسها . ويصنف هؤلاء الافراد رسمياً في طبقات على اساس علاقاتهم البيولوجية او الزوجية به ، وتعين له حقوق وواجبات بالنسبة لاعضاء كل طبقة . اما طرق التصنيف وانماط السلوك المعينة للتفاعل بين اعضاء كل طبقة من الاقارب فقد تختلف كثيراً من مجتمع الى آخر . ولقد كان تصنيف انظمة العلاقات ووصفها احدى الهوايات المحببة الى علماء الانسان منذ ابتداء هذا العلم ، وما كتب عن هذا الموضوع الى الآن كثير جداً . وعلى كل حال، فلا اهمية كبيرة للفروق بين النظم المتبعة بالنسبة لبحثنا هذا . وما له اهمية لدينا هو ان انماطاً حضارية عديدة مرتبطة بالتفاعل الاجتماعي تسند الى الفرد على اساس عضويته العائلية وان الذين تمارس هذه الانماط معهم يعيّنون بجلاء بموجب هذه الاسس ذاتها . وبما ان الافراد الذين تربطهم علاقة ما محددون تحديداً دقيقاً ، وبما ان الاتصال بهم مستمر ووثيق فان الوضع العائلي وضع تتعرض فيه الانماط المقررة حضارياً للتعديل عن طريق الخبرة . وبكلمة اخرى يجد الفرد امامه فرصاً وافرة للتعرف على اقاربه بوصفهم اشخاصاً ولتكييف سلوكه معهم حسب شخصيته وشخصياتهم . ورغم انه لا يمكن ، بما لدينا من معلومات ، ان نبرهن على ان السلوك الذي تشتمل عليه انماط الحضارة الحقيقية بالنسبة لاوضاع القرابة هو سلوك اكثر تنوعاً مما هو بالنسبة لغيرها من الاوضاع ، فان هذه الحقيقة تبدو محتملة جداً . ومع ذلك ، فهي ايضاً احد الميادين الذي يرجح ان تنشىء المجتمعات لها فيه انماطاً مثالية ، والذي

يعاقب فيه على الانحراف الظاهر عن هذه الانماط بالزجر الشديد. وبالتالي فعلى الباحث في شخصيات الافراد وبيئاتهم الاجتماعية ان يهتم بالسلوك العام والخاص لاعضاء العائلة تجاه بعضهم بعضاً. فمن الرجال الذين اقترفوا خطأ اجتماعياً ذلك الذي يمضي ما تبقى له من المساء وهو يرتجف خوفاً مما قد يبدر من زوجته الوفية الحنون المخلصة ، عندما يعود الى البيت .

تختلف الجماعات المتحدة عن الجماعات العائلية من ناحيتين هامتين . فالعضوية في الاولى تقتصر عادة على افراد ينتمون الى جنس واحد وسن واحدة تقريباً ، واكتساب العضوية فيها امر اختياري في الغالب . وهناك شواذ لكلتا القاعدتين في مختلف المجتمعات ولكنهما يصدقان في اكثر الحالات . وتتكون امثال هذه الجماعات المتحدة على اساس التجانس او المصالح المشتركة وفي الغالب على اساس عناصر من كليهما . وهكذا نجد انه حتى الطوائف المهنية التي لا تخرج اهدافها المعلنة عن الصبغة العملية والاقتصادية ، تحرص الى حد ما على ألا تضم الا الافراد الذين يتوافقون الى درجة تجعلهم قادرين على التعاون تعاوناً لا يشوبه الا القدر الاقل من المشاحنات . وتشمل هذه الجماعات المتحدة وحدات من انواع عديدة . فهي تضم الصداقات والتكتلات وجماعات العمال والنوادي والجمعيات العادية . فحتى غالبية التجمعات غير النظامية تتميز بقسط من التنظيم الداخلي في حين ان اياً منها قد تصبح ذات تنظيم قوي في بعض المجتمعات . ففي

« داهومي » نجد علاقات الصداقة تستلزم حقوقاً وواجبات لا تقل في دقتها عما نجـــده بين اقرب الاقرباء من اي نوع كان — كالاخوة مثلاً . وفي التجمعات الكبيرة كالنوادي والجمعيات السرية مثلاً ، قد يأتي التنظيم متقناً ورسمياً مشتملاً على موظفين وطقوس خاصة . وتستتبع العضوية في مثل هذه الوحدات اسناد انماط معينة من السلوك يمارسها الفرد تجاه بقية الاعضاء . وقد تستتبع ايضاً — وبخاصة اذا كان لهذه الوحدة وظائف معينة بالنسبة للمجتمع كله — تعيين سلوك خاص تجـــاه الآخرين من خارج الوحدة . ومثل هـــذا السلوك عادة سلوك مؤقت لا ينتظر من الفرد اتباعه الا عندما تكون الجماعة منهمكة في الاحتفالات او في القيام بتأدية وظائفها الخاصة . وهكذا ينتظر من اعضاء جمعية هنود « السهول » ان يتصرفوا على نحو معين عندما تقدم الجمعية رقصتها او تقوم بوظيفة بوليسية ، ولكنهم يتصرفون كما تتصرف بقية الناس في الاوقات العادية الاخرى .

اخيراً ان انتظام الافراد والجماعات في سلسلة من المراكز المتدرجة الاهمية قد يرتبط باسناد مختلف اشكال السلوك اسناداً رسمياً لأشخاص يحتلون مراكز مختلفة في تلك السلسلة . وحتى في المجتمعات التي تفتقر الى بناء طبقي حقيقي ، وما يستتبعه من الانمـــاط الحضارية المختلفة ، ينشأ في العادة شعور بأنه ينبغي على الافراد ذوي المكانة الكبيرة ان يسلكوا سلوكاً معيناً . وينعكس هذا في قولنا المأثور « الكرامة تقتضي » . ونتوقع من

امثال هؤلاء ان يكونوا حريصين في ممارستهم لسلطتهم الحقيقية وان يراعوا شعور من هم ادنى رتبة منهم . والاخفاق في هذه الامور يعرضهم لفقدان احترام الآخرين لهم . وحتى عندما لا ترتبط انماط السلوك الرسمية بالمراكز المتدرجة الاهمية فان مثل هذه المراكز تؤثر حتماً في سلوك الافراد الذين يحتلون مراكز مختلفة تحددها انماط الحضارة الحقيقية . فكل واحد منهم يتصرف تصرفاً مختلفاً تجاه رؤسائه وتجاه اترابه وتجاه من هم دونه مكانة . وحتى اذا كان السلوك الظاهر تجاه احد هؤلاء يعتبر طبيعياً تجاه اشخاص ذوي علاقات تختلف في طبيعتها فان نتائج هذا السلوك تأتي مختلفة . ولهذا فاننا نطري من هم اقل منا مركزاً عندما نعاملهم معاملة الاكفاء ونغيظ من هم اعلى منا مركزاً بالمعاملة ذاتها .

ومختصر القول ان كل نظام للتصنيف او للتنظيم قائم في مجتمع اولي يعين انماطاً حضارية خاصة للفرد على أساس مركزه في ذلك النظام . وعلى كل فان النظم تختلف أهمية من هذه الناحية . فمركز الفرد في نظام السن والجنس يؤثر اكثر من غيره على ما يظهر في تقرير مشاركته في الحضارة . ويلي ذلك من حيث الأهمية مكانته في النظام العائلي رغم ان الأهمية الرئيسية لمكانته العائلية هي تزويده بانماط تحدد علاقاته مع عدد خاص محدد من الأفراد لا مع المجتمع بكامله . فالمراكز التي يحتلها في انظمة الأعمال الاختصاصية والجماعات المتحدة وسلم

الاعتبار تساعد ايضاً في عملية تعيين الانماط الحضارية ، الا انه يبدو ان اياً من تلك التنظيمات لا يمكن ان تضاهي في اهميتها النظامين الاولين . والباحث الذي يستطيع ان يعين مركز من يدرسه في فئات السن والجنس وفي نظام العائلة يمكنه ان يستدل منه على الجزء الاكبر من مشاركته الحضارية، على الاقل بالنسبة للبرهة الزمنية المعينة التي يجري فيها البحث . زد على ذلك انه من الممكن دائماً تكوين جماعات من افراد ينتمون لفئة السن والجنس ذاتها ويحتلون مكانات متشابهة في وحدات عائلية مختلفة . والمشاركة الحضارية العامة بين اعضاء مثل هذه الجماعات تقدم لنا اقرب اطار استنادي يمكن ايجاده في الظروف التي يجب ان تتم في ظلها دراسات الشخصية كلها . وعلى اساس هذا الاطار يمكن دراسة الفروق الفردية في السلوك وفي ردود الفعل ومقارنتها ، كما يمكن استقصاء اسباب هذه الفروق ايضاً .

كنا حتى الآن نعالج المشاركة الحضارية بالاستناد الى اسس البناء الاجتماعي العامة وغير الشخصية . وعلينا الآن ان نتحول الى الفرد من حيث علاقته بهذا البناء وان ننفذ من خلال هـذا الى علاقته بحضارة مجتمعه . ويجب ان يكون واضحاً الآن ان بناء المجتمعات الاولية حتى البسيط منها، كالقرية البدائية مثلاً، ليس بسيطاً ولا متجانساً . فالافراد الذين يؤلفون مجتمعاً من هذا النوع يصنفون وينظمون بعدة طرق مختلفة في آن واحد . ولكن

لكل نظام من هذه النظم وظائفه الخاصة من حيث صلة الفرد بالحضارة ، وله مركزه في كل منها . وهكذا نرى ان لكل عضو في المجتمع مكاناً في نظـام السن والجنس وفي سلم الاعتبار ايضاً . وله مركز في نظام المهن الاختصاصية اما كمتخصص او كعضو في الجمهرة الباقيـة التي ندعوها في مجتمعنا بـأسماء مبهمة كالعمال غير الفنيين مثلاً او ربات البيـوت . واخيراً فهو ينتمي دائماً الى وحدة عائلية ما والى واحدة او اكثر من الجماعات المتحدة . وطالما ان له قريباً واحداً حياً في المجتمع فان له مركزاً في نظام العائلة . وحتى لو انقرض جميع اقاربه فبامكانه ان يعود فيدخل في هـذا النظام بالتبني او بالزواج . اما من حيث الانتساب الى نظام مبني على الاتحاد فـلا يمكن لعضو في مجتمع اولي — اللهم الا اذا كان فاقداً لقواه العقلية — ان يخفق في الانتماء الى وحدات الصداقة او جماعات العمال . قد يمنع من الانتماء الى احد النوادي اوغيره من التجمعات الاتحادية الرسمية، ولكنه، حتى في مثل هذه الظروف ، يحتل مـكاناً محدداً تماماً في النظام الذي تؤلف هذه الجماعات اجزاء منه . فهو « خارج » هذه الجماعات ولكن وجود امثاله هو المصدر الذي يستمد منـه « الاعضاء » معظم رضاهم العاطفي . وليس من الممكن ان نتصور وجـود جمعية سرية بدون جمهور كبير من المتفرجين من غير الاعضاء يحسدون اعضاء الجمعية ويغبطونهم ويتكهنون باسرارهم .

ثبت لنـا من المحاولات السابقة لتوضيح علاقة الفرد بهذه

النظم الاجتماعية المتعددة ان هناك اصطلاحين نافعين الى حد يبرر على ما يظهر ذكرهما . لقـــد حاولنا ان نوضح بجلاء ان النظم تستمر في بقائها في حين ان الافراد الذين يحتلون المراكز فيها يجيئون ويذهبون . فالمكان الذي يحتله فرد معين في نظام خاص وفي وقت معين يعرف « بمكانته » (Status) في ذلك النظام . وقد استخدم آخرون ممن يدرسون البناء الاجتماعي كلمـــة « مركز » (Position) بالمعنى ذاته ، ولكن بـدون اعتراف صريح بعامل الزمن او بوجود طرق شاملة للتنظيم مشابهة داخل المجتمع . ومنذ وقت طويـــل جرى استخدام كلمة « مكانة » للدلالة على مركز الفرد في نظام الاعتبار في المجتمـــع . اما في استعمالها الحالي فقد توسع المدلول ليشمل مركزه في كل من الانظمة الاخرى . اما الاصطلاح الثاني فهو « الدور » (Role) وسوف نستعمله للدلالة على المجموع الكلي للانماط الحضارية المرتبطة بمكانة معينة . وهكذا فهو يتضمن الاتجاهات والقيم والسلوك الذي يعينه المجتمع لجميع الاشخاص الذين يحتلون هذه المكانة . ويمكن توسيعه ايضاً ليشمل الردود المشروعة التي يتوقعها هؤلاء الاشخاص من سلوك اصحاب المكانات الاخرى في النظام ذاته تجاههم . وكل مكانة مرتبطة بدور معين ، ولكن الاثنين ليسا بحال من الاحوال الشيء نفسه من وجهة نظر الفرد . فمكانات الفرد تعين له على اساس سنه وجنسه . ومولده والتحاقه بالزواج من وحدة عائلية خاصة وما اليه . اما ادواره فيتعلمها على اساس

تلك المكانات اما حسب الواقع او حسب ما يتوقع . والدور ، من حيث انه يمثل السلوك الظاهر ، هو المظهر الحركي (الدينامي) للمكانة ، الامر الذي يترتب على الفرد ان يؤديه كي يثبت احتلاله لتلك المكانة .

يمكن لعدد من الافراد احتلال مكانة خاصة في نظام اجتماعي ومعرفة الدور المرتبط بها وممارسته في وقت واحد . وهذه هي الحالة الطبيعية في الواقع . فكل مجتمع طبيعي يشمل عدداً من الاشخاص الذين يحتلون مكانة الذكر البالغ الرشد ويحافظون على دور الذكر البالغ الرشد . وكل مجتمع يشمل عدداً من الاشخاص الذين يحتلون مكانة الاب في تنظيمات الجماعة العائلية الخاصة التي ينتمون اليها . وعلى نقيض ذلك ايضاً ، نجد الشخص الواحد يحتل ، ويمكنه ان يحتل في الوقت ذاته ، سلسلة من المكانات كل واحدة منها مستمدة من الانظمة التي يشارك فيها . وهو لا يحتل هذه المكانات فحسب بل ويعرف الادوار الخاصة بها . ولكن على كل حال لا يستطيع ان يمارس كل هـــذه الادوار في وقت واحد . فمثل هذه الادوار عنصر ثابت في مشاركته للحضارة المستترة لمجتمعه ولكنها تؤدي وظيفتها من حين الى آخر خلال مشاركته . وبعبارة اخرى نقول انه بالرغم من احتلاله مكانات متعددة ومعرفته لادوارها في كل الاوقات الا انه يعمل احياناً بوحي مكانة واحدة ودورها واحياناً اخرى بوحي مكانة ودور

غيرها . وتعرف المكانة التي يعمل بموجبها الفرد في لحظة معينة **بالمكانة الفعالة** (Active Status) . اما المكانات الاخرى التي لا يعمل بموجبها في الوقت ذاته فتعرف **بالمكانات الكامنة** (Latent Status) . اما الادوار المرتبطة بمثل هذه المكانات الكامنة فانها تكف موقتاً عن العمل ، الا انها تظل اجزاء لا تنفصم من عدة الفرد الحضارية .

ويمكن توضيح هذا القول بالامثلة . لنفترض ان رجلاً يمضي يومه كاتباً في احد المخازن . ان مكانة هذا الرجل الفعالة عند ما يكون وراء الصندوق هي مكانة الكاتب كما يحددها نظام المهن الخاصة في مجتمعنا . ويزوده الدور المرتبط بهذه المكانة بالانماط اللازمة لعلاقاته بالزبائن . وهو يعرف جيداً هذه الانماط كما يعرفها الزبائن ايضاً وبذلك تساعدهم على التعامل باقل ما يمكن من التأخير او سوء التفاهم. ولكن عندما ينسحب الى غرفة الاستراحة ليدخن لفافته او يلتقي مع غيره من الموظفين تصبح مكانة الكاتب كامنة ويشرع في ممارسة مكانة فعالة اخرى مبنية على اساس مركزه في الجماعة المتحدة المؤلفة من موظفي المخزن كلهم . وفي هذه المكانة تصبح علاقاته مع غيره من الموظفين خاضعة لمجموعة من الانماط الحضارية تختلف عن تلك التي استخدمها في علاقاته مع الزبائن . زد على ذلك انه ما دام على الارجح يعرف معظم الموظفين الآخرين ، فان ممارسته لهذه الانماط الحضارية تتعدل بحسب اهوائه الخاصة

بالنسبة لبعض الافراد وبمقتضيات مركزه والمراكز النسبية التي يحتلونها في سلم الاعتبار التابع لهيئة المخزن . وعندما يحين موعد الاقفال، فانه يتخلى عن مكاناته ككاتب وكعضو في هيئة المخزن، ويتصرف وهو في طريقه الى البيت طبقاً لمكانته بالنسبة لنظام السن والجنس الذي ينتمي اليه في المجتمع فحسب . فاذا كان شاباً فانه على الاقل يشعر بان عليه ان يتخلى عن مقعده لسيدة ؛ اما اذا كان كهلاً فانه يشعر بالراحـــة وهو فيه . وحالما يصل منزله تظهر مجموعة جـــديدة من المكانات مستمدة من روابط القرابة التي تربطه بمختلف اعضاء العائلة. وطبقاً للادوار الملازمة لهذه المكانات العائلية، فانه يتودد لحماته، ويحب زوجته، ويظهر بمظهر الصارم مع صغيره الذي تأخر في دروسه . اما اذا كانت الامسية مخصصة للجمعية التي ينتمي اليها فان مكاناته العائلية كلها تصبح كامنة في الثامنة مساء . وحالما يدخل النادي ويرتدي حلته بوصفه كبير هيئة الديناصور فانه يحتل مكانة جديدة كانت له منذ آخر اجتماع عقد في النادي ويتصرف طبقاً للدور الذي يرتبط بهذه المكانة حتى يحين موعد العودة الى البيت .

وطالما ان مختلف مكانات الفرد تصبح فعالة في اوقات مختلفة فان هذا يحول دون التصادم بين الادوار المرتبطة بها . واسوأ ما قد يحدث هو ان يطرد السلوك الظاهر الذي هو جزء من الدور المرتبط بمكانة ما ، نتائج السلوك الظاهر الذي هو جزء من دور آخر . ولا يتعارض السلوكان ذاتهما بسبب اختلاف الزمن .

زد على ذلك ان الادوار المرتبطة بالمكانات في نظام واحد هي عادة منسجمة انسجاماً تاماً ، ولذلك فهي لا تولد التصادم ما دام الفرد يعمل ضمن هذا النظام . ويصح هذا ايضاً على المكانات داخل نظم مختلفة وذلك عندما تكون هذه المكانات من النوع الذي يجتمع عادة في الافراد انفسهم . ولذا فان ادوار الرجل ، او الاب او صاحب المهنة الصناعية الخاصة او الصديق الخ في اي مجتمع من المجتمعات ، يتكيف الدور منها مع الآخر بالرغم من النظم المختلفة التي تنشأ منها . وبالطبع لا يصدر هذا التكيف عن تخطيط مقصود، بل ينشأ خلال تجارب الافراد الذين احتلوا مثل هذه المجموعات من المكانات في وقت واحد وازالوا معظم المنازعات شيئاً فشيئاً بالتجربة والخطأ . وهكذا نجد انه اذا استعرنا بعض انماط الصداقة الرسمية من مجتمع آخر فسريعاً ما نلاحظ انها تتعدل وتتحول على نحو يحول دون تعارضها مع الانماط القائمة فعلاً بموجب النظام المحلي للعلاقات العائلية .

وفي الحالات النادرة حيث يحدث عرضاً ان تلتقي المكانات ذوات الادوار المتعارضة اصلاً في فرد واحد تنشأ مأساة مؤلمة . ففي حين لا تتعاطف غالبية المجتمعات الا قليلاً مع شخص يحاول التهرب من تأدية بعض ادواره، نراها تتعاطف جميعاً مع شخص واقع في مأزق عليه ان يختار فيه بين مكانات وادوار كلها صالحة . ومثل هذه المآزق موضوع محبب في اداب المجتمعات المتفلسفة او المنطوية على نفسها . ومأساة «آل اوديب»

والاحداث الختامية من رواية نيبلونجنليد (Niebelungenlied) امثلة كلاسيكية على ذلك. كما اننا نجد في الاداب الشعبية البسيطة قصة ذلك الاسكتلندي الذي وجد نفسه مضيفاً لقاتل اخيه . ففي كل من هذه الحالات نرى الفرد الذي تلتقي فيه الادوار المتعارضة يواجه المشكلة بالنمط المألوف الذي يفرض عليه العمل بموجب مكانات مختلفة في اوقات مختلفة بالرغم من انه يدرك ان نتائج الادوار المختلفة يخالف بعضهــا البعض الآخر . ففي القصة الاسكتلندية يقود الاخ ، بوصفه مضيفاً ، القاتل بامان الى خارج حدود العشيرة ، ثم بوصفه اخاً للقتيل يشتبك معه في معركة حتى الموت .

ويندر ان تنشأ مثل هذه المنازعات في المجتمعات الاولية او حتى في التكتلات الاجتماعية الكبرى التي بقيت مدة من الزمن وانشأت حضارات متكاملة . وعلى كل حال فقد تتكرر المنازعات كثيراً في ظل الظروف السائدة في مجتمعنا الراهن . ولما كانت الضرورة تقضي باعادة تنظيم بنائنا الاجتماعي لمواجهة متطلبات التقنية الجديدة والانتقال عبر الاجواء الفضائية بصورة ليس لها مثيل في التاريخ ، فقد اخذ نظام المكانات والادوار الموروثة في التدهور ، في حين ان نظاماً جديداً يتلاءم مــع الاحوال الفعلية للحياة الحديثة لم ينشأ بعد . وهكذا يجد الفرد نفسه في الغالب وجهاً لوجه مع اوضاع لم يطمئن بعد في كنفها الى مكاناته وادواره والى مكانات الآخرين وادوارهم . والفرد

لا يجد نفسه مضطراً للاختيار فحسب بل ولا يطمئن مطلقاً الى انه احسن الاختيار ، والى ان سلوك الآخرين المتبادل سيكون من النوع الذي يتوقعه ويترقبه على اساس المكانات التي افترض انهم يحتلونها . وينتهي به هذا الى الكثير من الفشل ومن خيبة الامـــل .



الفصل الرابع

الشخصيَّة



الشخصيّة

ان ادراك الظواهر التي هي موضوع دراسة الشخصية قديم قدم جنسنا. فحتى انسان جاوه لم يلبث ان تعلم بالتجربة ان بعض حيوانات القطيع طيبة او شرسة ، غبية او ذكية ، متبلدة او سريعة الانفعال. على ان هذه الفوارق كانت طوال الشطر الاكبر من تاريخ الانسان تعتبر من طبيعة الاشياء ولا تحتاج الى تفسير . فلم تظهر المفاهيم الحديثة في الشخصية ودراسة عملية تكوين الشخصية الا مؤخراً ، بل انها احدث من دراسات الحضارة والمجتمع التي اوردنا بعض ما قد وصلت اليه في الفصول السابقة . فليس من الغريب اذاً ان نجد الكثير من الابهام ما زال يكتنف المفاهيم والتعريفات التي يجب استخدامها كأدوات لدراسة الشخصية . بل ولم يُتفق بعد على معنى دقيق لكلمة شخصية . هنالك عدد لا يحصى من التعريفات تشترك كلها في صفات معينة ولكن عملية التوضيح بواسطة الاستعمال التي تحدثنا عنها في كلامنا على تعريف الحضارة ما تزال جارية .

فالواقع ان المشكلة الرئيسية التي تعترض تعريف الشخصية هي مشكلة التحديد . فالفرد وبيئته يؤلفان شكلاً دينامياً

متكاملاً يربط بين اجزائه كلها رباط وثيـــق وتفاعل مستمر يصعب معها تعيين الحدود الفاصلة . وحسبنا هنا ان نعرّف الشخصية بانها « المجموعة المنظمة للعمليات والحالات النفسية الخاصة لشخص ما ». ويشتمل هذا التعريف على العنصر المشترك بين معظم التعريفات المتداولة ، ويستبعد في الوقت ذاته عدداً كبيراً من المظاهر التي يشملها واحد او اكثر من هذه التعريفات. وبهذا يستبعد التعريف السلوك الظاهر الناجم عن هذه العمليات والحالات بالرغم من ان طبيعتها ، بل وحتى وجودهـــا ، لا يستخلصان الا من مثل هذا السلوك . ويحول التعريف كذلك دون الالتفات الى تأثير هذا السلوك في بيئة الفرد او حتى في جانبها الذي يضم افراداً آخرين. واخيراً فانه يستبعد من مفهوم الشخصية البناء المادي (الجسماني) للفرد وعملياته الفيسيولوجية. وقد يبدو هذا التحديد الاخير عنيفاً في نظر كثرة ممن يدرسون الشخصية ، ولكنه ذو مبرر ان لم يكن منطقياً فهو عملي . فان ما نعرفه عن المرادفات الفيسيولوجية للظواهر النفسية ضئيل الى درجة لا تؤدي معها محاولة معالجة الظواهر النفسية على اساس المفاهيم الفيسيولوجية الا الى المزيد من الغموض لا الوضوح. واذا كانت اجزاء الكون كلها مترابطة الى حد ما فان العلوم كلها تضع حدوداً اعتباطية لميادين بحثها . ولقد اتضح بالتجربة انه من الممكن الوصول الى استنتاجات صحيحة بشأن ظواهر ناحية معينة دون الاستناد الى ظواهر النواحي الاخرى التي قد يكون بينها وبين الاولى علاقة وظيفية . وهكذا استطاع علماء الوراثة

وضع قوانين الوراثة دون اي استناد الى كيمائية الجينات المسئولة في النهاية عن ظهور الخصائص الجسمية . وعلى هذا النهج ايضاً تمكن علماء النفس التجريبيون من كشف الكثير من الامور عن عمليات التعلم وذلك بمعالجتها بالاساليب النفسية والسلوكية الصرف ، بالرغم من انهم لا يزالون يجهلون تماماً تقريباً المرادفات الفيسيولوجية لهذه العمليات .

نحن نعترف بان عبارة «العمليات والحالات النفسية» مبهمة ، ويبدو من الحكمة ان نتركها كذلك . فالمرجح ان معرفتنا بالمحتوى والبناء الفعليين للشخصية اقل من معرفتنا بأي ناحية اخرى من الفرد . فالشخصيات اشكال متكاملة من نوع فريد ، لا يوجد له نظير على مستوى المظاهر الجسمية . اضف الى ذلك انها لا تخضع للمشاهدة المباشرة . ولا نستطيع ان نستدل على خصائصها الا من السلوك الظاهر الذي تتجلى فيه هذه الخصائص ، فاذا خطونا خطوة اخرى نرى ان الاساس الوحيد لافتراض وجود الشخصيات كوحدات عاملة فعالة مستمرة على مرّ الزمن هي استمرار السلوك الظاهر للافراد على نحو ثابت . فصدور ردود فعل متشابهة لحوافز متشابهة عند الفرد في تلك الحالات التي تكون فيها هذه الردود معقدة لاغريزية ، لا يمكن تفسيره الا بافتراضنا ان التجربة قد اصبحت ، بشكل من الاشكال ، منظمة ودائمة . ومن سوء الحظ ان السلوك الملاحظ كثيراً ما يكون قابلاً لاكثر من تفسير نفساني واحد . وبالتالي يمكن لاي

وصف من الاوصاف المختلفة لمحتوى الشخصية وبنائها ان يتناول الجزء الاكبر من الحقائق المعروفة . ويزداد الامر اضطراباً لان غالبية المحاولات لوصف الشخصية تقتضي استخدام مصطلحات مستمدة من ميادين الظواهر المادية الجسمانية المألوفة يندر ان تنطبق على الظواهر النفسية . فاذا اردنا الكلام على المستويات في داخل الشخصية اثرنا بذلك صورة من العلاقات المكانية التي لا تقابل ولا تجال تلك الدرجات المختلفة من التكامل او من قابلية التغير او المطاوعة للتأمل او المعالجة المنطقية التي يعنيها عالم النفس بذلك المصطلح . وليس من العجيب اذن ان كثيراً من الرسوم الشائعة للشخصية تذكرنا بخرائط القرن السابع عشر . فالخطوط الساحلية واضحة جداً ولكن الفراغ الداخلي مغطى برسوم تمثل الهو (Id) الاشعر البـــذيء ، و (الذات العليا) (Superego) محاطة بهالة من الاحترام والنقش الآتي : « هنا تكون العُقد » .

طالما ان السبل الوحيدة الى معرفة الشخصية هي تلك التي يهدينا اليها سلوك الفرد الظاهر والعلاقات المنظورة بين هـــذا السلوك من جهة ، وحاجات الفرد وبيئته من جهة اخرى ، فان هناك على ما يبدو ما يبرر التصدي لمشكلة محتوى الشخصية من الناحية الوظيفية . يمكننا ان نجعل ما يلي مقدمتنا الاولى : وهو ان وظيفة الشخصية بكاملها هي تمكين الفرد مـــن استحداث اشكال من السلوك مفيدة له في الاحوال التي تفرضها عليه بيئته . ومن ثمّ تتخذ مقدمة ثانية وهي : اذا كانت كل الامور الاخرى

متعادلة فان هذه الوظيفة تؤدى على خير وجه عندما يُستحدث السلوك المفيد بأقل مـــا يمكن من التأخير وبأقل ما يمكن من الجهد . ويمكن تحقيق المقدمة الثانية على خير وجـــه بتلك التصرفات التلقائية التي ثبتت صلاحيتها والتي ندعوها بالعادات (Habits) . ويمكن لنـــا ان نلخص عمل الشخصية على اساس هاتين المقدمتين بما يلي :

١ – تنمية ردود سلوكية مناسبة لمختلف الحالات .

٢ – جعل هذه الردود من قبيل العادة .

٣ – اظهار الردود الاعتيادية التي تمّ انشاؤها .

والخطوة الاولى في هـــذه العمليات الثلاث هي **تسجيل** (Registry) [١] الحالة التي تثير الرد . ولقد اخترت هذا المصطلح بدلاً من **التمييز** (**Recognition**) او **الادراك** (Perception) لان هذين المصطلحين ينطويان على معنى الوعي . وعندما تكون الحالة جديدة وغير مألوفة فان تسجيلها يكون في العادة على مستوى الوعي، ولكن ما ان تغدو مألوفة ومرتبطة برد اعتيادي مناسب حتى تسجل على مستوى اللاوعي . وهكذا فقد يسجل شخص عدداً من الحالات وينشىء لها عنـــد ظهورها ردوداً

---

١ – اول من استعمل هذا المصطلح بمعناه هذا الدكتورة كارن هورني .

اعتيادية من غير ان يعرف ما الذي يفعله وبدون ان يقطع تيار عملياته النفسية الواعية . وهذا النوع من التسجيل مقدمة ضرورية للرد بغض النظر عما اذا كانت الحالة المعنية ناشئة بالدرجة الاولى عن عوامل داخلية او خارجية . ولذا نجد ان معظم الذين يمارسون اعمالاً خلاقة يعرفون ان التوترات الفيسيولوجية التي يثيرها الجوع او التعب قد لا تسجل خلال مدة طويلة من الزمن، وهي لا تفرض نفسها الا اذا طغت على النشاط الخلاق موجة من الركود . ويكفي العنف الذي تفرض به نفسها عندما يطعن الركود برهاناً على ان التوترات نفسها قد تابعت المجرى الطبيعي لتطورها . ولا يكون قد تعثر سوى تسجيلها بوصفها مثيرات . ومن الامور البديهية التي لا تحتاج الى نقاش هو ان تسجيل المثيرات المنبثقة من خارج الكائن خطوة تمهيدية ضرورية للرد ، فالمرء لا يبتعد بسرعة عن طريق السيارة الا اذا رآها قادمة .

ولدى عرضنا للخطوة الاولى في نشوء المثير والرد على التتالي تعمدنا استخدام كلمة حالة وفضلناها على مصطلح اكثر دقة وتحديداً وهو : **المثير** (Stimulus) فمن الناحية العملية نجد ان كل الحالات التي تثير في الانسان ردوداً تشتمل على عوامل متعددة . فعلماء النفس الذين يتصدون لدراسة السلوك البشري بعد ان يكونوا قد اجروا اختبارات على الحيوانات يميلون الى التقليل من اهمية التعقيد المتناهي للظروف التي ينشأ في كنفها ويصدر عنها معظم السلوك الانساني . وان حاجات الفرد التي

يجب ان نعتبرها الدوافع النهائية للسلوك قلما تعمل على شكل مثيرات منفردة وذلك لان معظمها موجود في اكثر الاوقات . ويبالغ البعض في هذه الحالة بسبب قدرة الانسان على ان يرى مسبقاً تكرر حاجاته حتى وان لم تكن حاجات ماسة . ولهذا فان الجوع الراهن والجوع المرتقب يبعثان مثيراً، له في نظر رجال على سفينة للنجاة في البحر اهمية واحدة في تقرير الطريقة التي يجب ان يوزعوا بها طعامهم المحـــدود . ومن الممكن ، حتى بدون عامل التوقع هذا ، ان تسجل لدى الفرد عدة حاجات في وقت واحد . فمن سبق له ان كان كشافاً يعرف انه بامكان المرء ان يكون جائعاً تعباً يشكو البرد ومع ذلك يتطلع في نفس الوقت، الى ان يترك لدى رفاقه انطباعاً حسناً عن نفسه .وتختلف الحاجات المجتمعة في اي وقت في اهميتها ، فاذا كان اشباع اي منها ، وبخاصة اذا كانت ناجمة عن التوتر الفيسيولوجي ، قـــد تأجل مدة طويلة فقد تسيطر على الحالة وتعمل بوصفها الدافع الوحيد للسلوك . ولكن هذه الحالة قلمـــا تنشأ في الظروف الطبيعية التي تكتنف الوجود الانساني ، فالذي يجري عادة هو ان عدداً من الحاجات ليس بينها واحدة مسيطرة سيطرة قوية ، تعمل معاً لتكوين الدافع لرد سلوكي خاص . ويكون هذا الرد بدوره قد قصد منه اشباع كل الحاجات المجتمعـــة بدرجات متفاوتة . فاذا عدنا الى مثل الكشاف مثلاً فان التقاء الحاجات الى الطعام والدفء والراحة والمحافظة على حسن رأي الرفاق

الآخرين في الفرقة ستؤدي الى محاولة اقناع الفرقة كلها بالرجوع الى البيت .

وتنجم تعقيدات اخرى من الحقيقة التالية وهي ان اي سلوك يكفي لقضاء حاجة معينة او طائفة من الحاجات يجب ان ينظم حسب الظروف التي تفرضها بيئة الشخص . فبالرغم من ان تسجيل حاجة ما قد يسبق تقدير الفرد لهذه الظروف فكلا الامرين تمهيد ضروري لنشوء الردود السلوكية الفعالة . وفي الوقت الذي يجوز فيه الفصل بين الامرين تحليلياً فهناك شك فيما اذا كان يمكن فصلهما من الناحية الوظيفية ، وفيما يتعلق بالردود السلوكية المقررة ، اي العادات بوجه خاص ، يبدو ان هناك ادلة وافرة على ان الحاجة ، او مجموعة الحاجات والاوضاع التي تجد فيها الحاجة ما يشبعها عادة، تؤدي وظيفتها بوصفها وحدة اثارة مستقلة . زد على ذلك ان ادراك الظروف في كثير من الحالات يكفي على ما يظهر لاطلاق سلسلة الردود المعتادة حتى عندما لا تسجل الحاجات التي ينطوي عليها الشكل المتكامل بسبب عدم توفر الظروف . ومن الامور المعروفة ان الطعام الشهي يثير الشهية ويؤدي الى اثارة الردود المعتادة في الاكل حتى عندما لا يكون هناك شعور سابق بالجوع . ومن المحتمل في مثل هذه الحالات ان تكون الحاجات التي تنطوي عليها حالة الاثارة موجودة فعلاً عندما ندرك الوضع ولكن في الخفاء . ورغم ان حاجات الفرد تتفاوت الحاحاً وشدة بين لحظة واخرى فمن النادر

في الاوضاع الطبيعية للحياة ان تشبع اي منها اشباعاً تاماً .
وحتى عندما يخف التوتر الذي لا بد منه عند نشوء اية حاجة
الى مستوى ادنى من الذي يصبح فيه عادة مثيراً للسلوك، تظل
هنالك بقية من توتر تمكن الحاجة من العمل كدافع محرك للسلوك
حالما تتوفر لها الظروف المألوفة . وعندما يؤدي الرد المعتاد الى
اشباع حاجات متعددة في وقت واحد فان مجموع التوتر الذي
تخلفه هذه الحاجات يكفي على ما يظن الى اطلاق التصرفات .

ثم ان الحالات التي تثير ردوداً سلوكية عديدة جداً
ومتنوعة، وتشمل اكثر التعديلات والمركبات الممكنة لحاجات
الفرد ولمختلف الاوضاع التي قد تجد فيها هذه الحاجات ما
يشبعها . وعلى كل فهنالك على الاقل عامل واحد سندعوه
بالعنصر الاجتماعي (Social Component) الذي يشترك في
الغالبية العظمى من الحالات الانسانية المثيرة، وهو ينشأ من
الظروف المضمرة في الوجود بوصف الفرد عضواً في جماعة منظمة،
ومن تعود الفرد التام على هذه الظروف . وكما ذكرنا آنفاً فان
غالبية انماط السلوك البشري هي ردود لا على حاجة واحدة
فحسب بل على طائفة من الحاجات . والحاجة للحصول على
ردود موافقة من الآخرين عنصر ثابت في مثل هذه الطائفة .
والحق اننا لا نغالي اذا ذهبنا الى ان جزءاً ضئيلاً جداً من السلوك
البشري المنظم هو الذي لا يستهدف اشباع تلك الحاجة الى حد
ما على الاقل . وبالرغم من ان هذه الحاجة الى الاستجابة قد

تختلف في شدتها باختلاف الوقت، الا انها ليست دورية تماماً مثل تلك الحاجات المنبعثة مباشرة عن التوترات الفيسيولوجية . وهكذا يمكنها ان تعمل كدافع للسلوك في اي وقت من الاوقات تقريباً . ومن الصعب ان نتصور حالة تشبع فيها رغبة الفرد في الحصول على استجابات ملائمة من الآخرين اشباعاً تاماً الى حد لا تبقى معه رغبة في الحصول على المزيد من هذه الردود او في تجنب الردود غير الملائمة .

وبما ان الافراد الآخرين يؤلفون عنصراً يكاد يكون ثابتاً في المحيط البشري فان الظروف التي قد تؤدي الى تسجيل هـــذه الحاجة تكاد تكون موجودة دائماً ايضاً. ثم ان الناس يتكيفون مع وجود الآخرين تكيفاً تاماً الى درجة انهم يميلون ميلاً قوياً الى اعتبار هذا العامل الانساني حتى في الحالات التي لا يكون موجوداً فيها . ونميل الى ان نلعب الموسيقى لجمهور من السامعين حتى عندما لا يكون هذا الجمهور موجوداً . ومن الممكن تبرير مثل هذا السلوك اذا ما شعرنا بالحاجة الى ذلك باحدى طريقتين: يمكن تبريره على اساس ما يتوقع، اي ما يكون عليه شعور الناس عندما يكتشفون ما قد فعله الفرد، ويمكن تبريره على اساس وجـــود جمهور مستتر . وفي الحالة الثانية يبدو الوسط الاجتماعي مشتملاً على كائنات تشبه الناس من حيث ردودهم على مختلف اشكال السلوك ومن حيث قدرة هذه الردود على التأثير في رفاه الفرد بغض النظر عن اختلافها عنهم في الصفات

الاخرى . فالبدائي الذي يؤمن بالارواح وبرؤية ارواح اجداده، واولئك الذين يعبدون الهاً دائم اليقظة قادراً على كل شيء، هؤلاء كلهم قد اختاروا التبرير على النحو الثاني .

ولا حاجـــة الى المبالغة في اهمية هذا العنصر الاجتماعي في تفهم السلوك البشري . فبسبب وجوده نقر أو ندين الانماط السلوكية خلال تكوينها لا على اساس تحقيقها لاهدافها الظاهرة فحسب بل وعلى اساس الوسائل التي يسعى المرء بواسطتها الى تحقيق هذه الاهداف . فالفرد الذي يعتمد انواع السلوك المقبولة اجتماعياً يتأكد من انه سيكافأ برد ملائم حتى عندما يقصر سلوكه عن بلوغ اهدافه الظاهرة . ويتلخص موقف الآخرين من مثل هذا الفشل بالجملة التالية : « حسناً، لقد حاول جهده » . وعلى العكس من ذلك نجد ان الشخص الذي يبلغ اهدافه باساليب من السلوك ملتوية لا يقرها المجتمع يثير ردوداً غير ملائمة تسلب هذه الاهداف الشيء الكثير من قيمتها . فهذا العنصر الاجتماعي هو المسئول الاول عن انتقال انماط السلوك المعقدة بكاملها من جيل الى جيل، وهو الذي يجعل كيفية تحقـّق هذه الاهداف مهمة عند الفرد أهميةَ سؤالنا : « هل تحقق الهدف فعلاً ؟ » ويبقي الضغط الاجتماعي نمو سلوك الفرد ضمن الحدود التي ترسمها انماط مجتمعه الحضارية، كما انه يضمن ان تصبح العادات التي يكونها على نحو يجعل التكهن بسلوكه على اساس مركزه في المجتمع ممكناً، كما يضمن ان تكون هذه العادات من نوع متجانس

مع العادات التي تكونت عند غيره من اعضاء المجتمع بالاساليب ذاتها . وبدون مثل هذا العنصر الاجتماعي لا يمكن للحضارة ان تنتقل ولا للمجتمعات ان تدوم وتؤدي وظيفتها كوحدات كاملة .

وملخص القول ان الحالات التي تثير الردود في الفرد هي – فيما عدا استثناءات قليلة جداً – اشكال متكاملة تشمل طائفة خاصة من الحاجات وطائفة خاصة من الظروف التي تحتم اشباع الحاجات في ظلها . ولنذكر هذا خلال بحثنا التالي للردود نفسها . ونستطيع تصنيف هذه الردود بطرق كثيرة تختلف باختلاف الاسس التي نختارها لتصنيفها . وبهذا تصبح المشكلة لا مشكلة تقرير صحة نظام تصنيف معين، بل مشكلة فائدة هذا النظام بالنسبة لمجموعة معينة من القضايا . وانه لمما يساعدنا في تفهم الترابط بين الشخصية والحضارة تصنيف الردود في مجموعتين رئيسيتين :

١ – ردود ناشئة (Emergent Responses).

٢ – ردود ثابتة (Established Responses).

ويمكن ان نشرح هذا بطريقة اخرى فنقول بانه يمكن تقسيم الردود الى تلك التي هي في طريق التكون والتنظيم وتلك التي قد تم تنظيمها واصبحت آلية، وفي حين ان الفئة الاولى تتداخل

بالتدريج مع الفئة الثانية الا ان قطبي السلسلة المتقابلين واضحان تماماً . ففي القطب الذي يمثل الردود الناشئة نجد التصرفات التي تثيرها حالات جديدة وغير مألوفة، وهي تصرفات تكون عادة اختبارية مبدئية وبدون تنظيم ثابت ولا ترتيب نمطي، اما في القطب الذي يمثل الردود الثابتة فنجد تلك التصرفات التي تثيرها حالات مألوفة وهي منظمة تماماً ونمطية . وفي حين ان الردود الناشئة تنطوي دائماً على درجة من وعي بالحالة وعلى شيء من المجهود لحل المشكلة التي تنجم من الحالة فان الردود الثابتة تلقائية ويمكن اعتمادها بدون تسجيل للحالة وبدون ان يبلغ السلوك المرتبط بها درجة الوعي والادراك .

على ان الردود التي يمكن للفرد تكوينها تمتد على طول المدى الذي تمثله هذه السلسلة، الا ان توزيعها فيها بعيد عن التساوي . فالعدد الاكبر منها يتجمع دائماً حول قطب الردود الثابتة ، واقلها يجتمع عند القطب المقابل . ومعظم الحالات التي يواجهها المرء خلال حياته العادية العامة تصبح مألوفة لكثرة تكررها ، ويواجهها بردود آلية ، او بتعبير مألوف « بالعادات » . وقد تتضمن مثل هذه العادات كثيراً من الحركة المهدورة ولكن يمكن في الغالب جعلها اكثر نفعاً في تحقيق اهدافها الظاهرة ومع ذلك فهي ارفع من الردود العرضية (Non-habitual) التي لم نتعودها وذلك من حيث حفظها للطاقة العصبية في الفرد وتخفيفها من حدة الضغط العاطفي . فالعيش بالعادات اسهل منه بالارادة

الواعية واكثرنا يعيش فعلاً بعاداته معظم الوقت . اما الانزعاج الذي ينجم عن ضرورة انشاء عـــدد كبير من طرق السلوك الجديدة لمواجهة الحالات الجديدة فهنالك امثلة وافرة عليه في محنة اللاجئين الاوروبيين الحاضرة. لقد حرم هؤلاء من الاوساط التي ألفوها ولم تعد عاداتهم فعالة ، الامر الذي ادى الى حدوث اضطرابات خطيرة في شخصيات عدد كبير منهم كما يبدو جلياً لاي شخص عمل مع اللاجئين. فالمرء قلما يضطر في ظل الظروف العادية الى معالجة حالات جديدة ، وعندما تواجهه مثل هـذه الحالات فهي قليلة في كل مرة . ثم ان قدرتنا على ممارسة معظم اعمالنا على مستوى العادات تؤدي الى حفظ الطاقة وتزودنا بما نحتاج اليه من النشاط الاضافي لاستحداث اشكال جديدة من السلوك كلما دعت الحاجة الى ذلك .

ان موضع اي رد سلوكي معيّن في السلسلة التي تمتد بين الرد الناشيء والرد الثابت ثبوتاً تاماً يطابق بوجه عـــام موضعه في سلسلة التطور الذي تتحول بموجبه الردود الاختبارية على مستوى الشعور الى عادات ، ولا بد وان يكون هناك دائماً مناسبة اولى يسجل فيها الفرد حالة من الحالات ومحـــاولة اولى لمواجهتها . وكلما تكررت الحالة اصبحت الردود السلوكية عليهـــا اكثر تنظيماً . وتقـــل شيئاً فشيئاً درجة الوعي التي ترافقها . وفي النهاية تندمج هذه الردود في نمط سلوكي واحد متكامل ينطلق تلقائياً عند تسجيل الحالة . وتؤلف المجموعة المنظمة للعادات

التي قد ثبتت لدى الفرد الجزء الاكبر من شخصيته وتخلع عليها شكلاً وبناء واستمراراً . والواقع اننا نستطيع ان نرسم صورة للشخصية تتألف بموجبها من نواة من العادات منظمة وثابتة نسبياً تحيط بها منطقة مائعة من الردود السلوكية في طور التحول الى عادات . وبالتالي فان العمليات التي ينطوي عليها انشاء سلوك جديد تستمد اهميتها الوظيفية الرئيسية من قدر اسهامها في تثبيت عادات جديدة فعالة . ونحن نميل الى الاعتقاد بان العمليات الفكرية هي ارفع مظاهر علم نفس الفرد . ولا ريب في انها تمثل ذروة الاتجاهات التي يمكن تمييزها في تطور الامكانات النفسية من الحيوان الى الانسان . وعلينا ان نعترف ، على كل حال ، ان عملها في اغلب الحالات ليس سوى تمهيد لتكوين العادة ، وهي تساعد وتيسر نشوء الردود السلوكية الظاهرة ، الا ان هذه الردود لا تحقق اقصى الفائدة الا بعد ان تصبح آلية اعتيادية .

وبما ان نشوء كل عادة يبدأ بمحاولة لمواجهة حالة جديدة فان العمليات التي تنطوي عليها هذه المحاولة ذات اهمية كبيرة لتفهم تكوين الشخصية . ومن الواضح ان عمليات من مختلف الانواع قد تجري الا اننا قلما نقدر الاهمية النسبية لهذه المحاولات المختلفة في استحداث السلوك البشري . ويبدو ان هنالك ميلاً شديداً عند كثير ممن يكتبون في هذه المواضيع لاحلال العمليات الذهنية المحل الاول ، واحلال التجربة والخطأ المحل الثاني .

والواقــع ان الرد **الاول** لدى اي شخص يضع نمطاً جديداً من السلوك لمواجهة حالة جديدة ، يستند عادة الى **التقليد** اكثر مما يستند الى احد هذين الصنفين من العمليات . وقد يعني التقليد نقل سلوك الآخرين بغض النظر عما اذا كان المقلد قد ألف هذا السلوك عن طريق المراقبة المباشرة ، او سمع عنه من غيره او قرأ عنه كما يحدث في المجتمعات المتقدمة . والاوضاع الوحيدة التي لا يمكن فيها ممارسة اسلوب التقليد هي :

١ — عندما تكون الحالة جديدة على المجتمع والفرد .

٢ — اذا لم تسنح الفرصة للفرد ليتعلم ما يفعله الآخرون رداً على حالة معينة .

على ان هذه الحالات لا تتخلل المجرى الطبيعي للاحداث ، وفي حين ان كل حالة قد تواجه الفرد هي جديدة من احــدى النواحي فان مجتمعه لا يواجه الا قلة من الحالات الجديدة . والفرد بوصفه عضواً في هذا المجتمع، يجد تحت تصرفه مستودعاً من انماط السلوك الكاملة التي تصلح لمواجهة كل الاحداث تقريباً، فالمجتمع يذكر ما هي الاحداث النادرة والسلوك الملائم لهــا ، ومــع ان كسوف الشمس التام لا يحدث اكثر من مرة واحدة طول حياة الفرد الا ان المجتمعات كلها تعرف الكسوف ولها انماط سلوكية ثابتة تتبعها عند حدوثه . ويتجلى تأثير هذه الانماط حالاً لان الشمس تعود دائماً الى الظهور ! اما الظروف

التي يجد فيها الفرد نفسه وحيداً وأمام حالة جديدة لا يجد افراداً آخرين يساعدونه على مواجهتها فهي اكثر وقوعاً ، ولكن المرء، حتى في مثل هذه الظروف، نادراً ما يجد نفسه معتمداً على امكاناته الخاصة فقط . فكل المجتمعات تخصص وقتاً طويلاً وتبذل جهداً كبيراً لتدريب الناشئة على ما يجب عليهم عمله في ظروف تفترض قيامها . فتدرب الاطفال ، الى جانب السلوك الملائم لمختلف الحالات ، كيف يستدلون على هذه الحالات . ورغم ان مثل هذه الردود التقليدية تفتقر الى السرعة والثقة اللتين تحصلان بتكرار التجربة ، الا انها ذات فائدة كبرى للفرد عند مواجهته للطوارىء . ولهذا فباستطاعة اي ولد من قبيلة من الصيادين يجد نفسه وحيداً عند هبوط الليل ان يبني له ملجأ يفيء اليه حتى وان لم يكن قد فعل ذلك قبلاً على الاطلاق . اما ابن المدينة الذي لم يتعلم ذلك فلا يستطيع تدبير امره اذا ما دعته الحاجة اليه . وباختصار نجد ان الفرد يواجه كل الحالات الجديدة وهو مزود بمعرفة الانماط السلوكية التي اوجدها وجربها اعضاء مجتمعه الآخرون ، ولا يضطر الى تكبد المشاق في حل المشكلات الجديدة الا عندما يكون جاهلاً بتلك الانماط .

وحتى في الظروف النادرة التي لا يستطيع فيها المرء ان يقلد غيره ، نرى الكبار البالغين قلما يعمدون الى استخدام اساليب التجربة والخطأ المبنية على السلوك الظاهر او نتائجه الظاهرة ،

لان هذه الطريقة لا تصلح لمعالجة الحالات المعقدة ، ولا تلبث نزعة الصغير الى استخدامها ان تتلاشى بسبب فشلها مرة بعد مرة. والامر على العكس بالنسبة لنزعة الصغير الى التقليد التي تحظى بالثناء والمكافأة باستمرار، فما تلبث ان تصبح رداً تلقائياً تثيره اي حالة جديدة . ولقد يعود الكبار الى التجربة والخطأ من حين الى آخر ولكنهم لا يفعلون ذلك الا تحت وطأة الانفعال الشديد كما يحدث في حالات الهياج او الذعر. ولذا فقد يلجأ حتى الرجل الذكي الى ذلك وهو يحاول فتح صندوق استعصى فتحه عليه . على ان هذه الزلات مؤقتة . فاذا افتقرنا الى انماط صالحة للتقليد فان الكبار يلجأون الى اسلوب عادي لحل المشكلات الجديدة وهو تدبر الحالة على ضوء التجارب السابقة وابتكار رد يتوقع المرء ان يكون صالحاً وذلك قبـــل اتباع اي اسلوب سلوك ظاهر . وبالتعبير المألوف: نفكر اولاً ثم نعمل . لكن الاساليب والعمليات التي ينطوي عليها التفكير معقدة لم تفهم جيداً بعد ، وليست بنـــا حاجة الى بحثها هنا . امـــا من حيث علاقتها باستحداث سلوك جديد فيبدو انها تشتمل على اعتبار سابق لنتائج الافعال المختلفة واستبعاد تلك التي لا فائدة منها . ولقد عرفت هذه العملية « بالتجربة والخطأ الرمزيين » ، وفي حين ان تعريف التفكير على هذا النحو قـد يخطىء بسبب المبالغة في تبسيطه فهو يعبر جيداً عن النواحي الوظيفية للعملية . فلا ريب في ان التفكير بديل لعملية التجربة والخطأ الظاهرين ، ويؤدي الوظيفة عينها بوقت اقصر وجهد اقل .

تجري العمليات الذهنيـــة في الاساس على مستوى الوعي وتنطوي على استخدام بقايا الخبرة الباقية في نطاق الوعي والتي ندعوها بـ « المعرفة » . والمضمون الحالي لمصطلح المعرفة واسع بحيث ان اية محاولة لبحث طبيعتها تخرجنا عن ميدان علم النفس وعلم الانسان الى ميدان الفلسفة . وعلى كل حال فان بقية الخبرة التي يعيها الفرد تحتوي على نوعين من العناصر التي يمكن تميزها بوظائفها المتعلقة بتنمية انماط سلوكية جديدة . فكل فرد معتاد على مجموعة من الانماط السلوكية التي استحدثها الآخرون ، كما ان لديه ذخـــيرة من معلومات لا ترابط بينها يمكن ان نسميها وقائع (Facts) . فمعرفته كيف يبني الملجأ مَثَلٌ على الاولى ، ومعرفته بان المياه تنحدر على سفح الجبل مَثَلٌ على الوقائع . فالمعرفة من النوع الاول اساس للسلوك القائم على التقليد وتنطوي الاستفادة منها على استخدام الذاكرة اكثر من الفكر . امـــا المعرفة من النوع الثاني فلا يمكن ربطها بالسلوك الا من خلال وسيط هو : عملية التنظيم والاقتران التي نرى بموجبها مسبقاً العلاقة بين وقائع معينة والنتائج المحتمـــلة لضروب معينة من السلوك. وبالرغم من ان معرفة انماط خاصة من السلوك ونتائجها قد يستفاد منها في معرفة الترابط – اي انها قد تخدم كما لو كانت وقائع – فان الوقائع لا يمكنها ان تخدم كأساس للسلوك القائم على التقليد . وعلى هذا فبينما نجد ان نوعي المعرفة السابقين – بناء الملجأ وانحدار المياه – قد يؤثران على نمو نمط سلوكي

جديد ، فان النوع الاول فقط هو الذي يمكن استخدامه اساساً للسلوك القائم على التقليد .

يكتسب الفرد حصيلته من المعرفة لا نتيجـــة مشاهداته المباشرة وتجاربه الخاصة فحسب ، وانما بواسطة التعلم ايضاً ، مما يخلق عاملاً قد تكون له عواقب غريبة . فذلك الجزء من المعرفة المتعلق بانماط سلوك الاعضاء الآخرين في المجتمع قريب جداً في العادة من الواقع، في حين ان مواد المعرفة الواقعية التي اصبحت كلها في متناول الفرد والتي تنتقل بانتظام داخل المجتمع، تكتسب وجوداً مستقلاً بعض الشيء . وينبغي النظر اليها بوصفها كفيلة بتأليف الانماط الحضارية . وفي كثير من الحالات يبلـــغ تطور الانماط هذه درجة تصبح معها الوقائع الثابتة حضارياً لا بعيدة عن الواقع فحسب بل ولا تسمح في الغالب من التأكد منهـــا بالتجربة والملاحـــظة المباشرتين . وتشمل كل المجتمعات في حصيلتها من المعرفة المنقولة مواد عديدة يمكن البرهنة على عدم صحتها . ويصدق هذا بخاصة على معرفة وقائع ماضية معينة . فلم يسبق لمجتمع ان علم اجياله الصاعدة الحقيقة عن تاريخه ، كما انها تصدق على حالات كثيرة يمكن فيها التأكد من صحة المعرفة المنقولة على ضوء مشاهداتنا المباشرة . وهكذا فان معرفتنا ان الاجسام ذات الاوزان المختلفة تسقط بسرعات مختلفة قد تناقلها المجتمع الغربي منذ ارسطو الى غاليليو. ولم توضع موضع الاختبار وتعد كونها مجرد معرفة فحسب الا بعد ان اقتحمت موجـــة

التشكك ومناهج التجريب والبحث دراسة الظواهر الطبيعية .

بغض النظر عما اذا كانت الوقائع صحيحة ام خاطئة فانها تزود عمليات التفكير بالادوات الضرورية لقيامهـا بوظيفتها . فكل واحد منا ينطلق في تفكيره من مقدمات معينة ، اي من معارف مسلم بها . وتتجلى طبيعة هذه المقدمات في الاستنتاجات والعمليات الذهنية، على ما نعلم، هي ذاتها عند كل الناس العاديين في كل زمان ومكان . وأقل ما في الامر ان كل من يبدأ بمقدمات معينة ينتهي الى الاستنتاجات ذاتها . ولقد وجد علماء الانسان بالتجربة انهم عندما يعيشون في مجتمع « بدائي » مـدة تكفي لوقوفهم على مقدماته (Premises) لا يجدون صعوبة في التفكير مثل افراده . وقد أدت الاستنتاجات غير المنطقية في الظاهر والتي توصل اليها افراد من غير الاوروبيين الى تأليف مقالات عديدة عن خصائص « العقل البدائي » الغريبة . ولكن الذي يلفت النظر هو اننا لا نجد بينها مقالة واحدة ألفها شخص له معرفة وثيقة مباشرة « بالبدائيين » . وتدل هذه الاستنتاجات على وجـود اختلافات في معرفة الوقائع التي يستخدمها افراد المجتمعات لا في عملياتهم الذهنية . فالقبيلة التي تحاول ان توقف وباء التيفوئيد بتنظيم حملة واسعة لملاحقة السحرة انما تؤدي عملها بمنطق يتناسب مع حقيقة مقررة حضارياً تحمل السحرة مسئولية انتشار الوباء . وعندما نحاول بلوغ الهدف نفسه بواسطة التلقيح وشرب الماء المعقم ، فاننـا نتصرف كذلك منطقياً على ضوء

معرفتنا المقررة حضارياً بان سبب المرض هو جرثومة البكتيريا. والواقع انه لم يسبق لمعظم افراد مجتمعنا ان رأوا في حياتهم جرثومة ، ولكنهم تعلموا ان الجراثيم موجودة وسلموا بوجودها بلا برهان . اما اسلافنا الاقربون فكانوا يجدون ملاحقة السحرة امراً اقرب الى المنطق من التلقيح .

وبالرغم من ان الرد الاول للفرد على حالة جديدة قد يصدر في الاساس نتيجة للتقليد او العمليات المنطقية ، او التجربة والخطأ ، الا اننا لا نعرف الا حالات قليلة جداً تعتمد وسيلة واحدة منها فحسب . وحتى لو شاهد المرء نمطاً سلوكياً معيناً مرة بعد مرة وحاول تقليده للمرة الاولى وجد نفسه غير مطمئن الى بعض الاجراءات . ويزداد شعوره بعدم الطمأنينة اذا كانت معرفته بذلك النمط قد جاءت اليه عن طريق السمع فقط ، لان عدم الطمأنينة هذا يثير سلسلة من المشكلات الصغرى التي لا بد من حلها بالتفكير او بالتجربة والخطأ . اما الطريقة التي قد تقوم فيها هذه العمليات المختلفة معاً بانشاء نمط سلوكي جديد فيقدرها كل من يستطيع ان يتذكر ويحلل محاولته الاولى لاصلاح جهاز كهربائي في بيته . فحتى الكراس المرشد الذي وضع لمساعدته في تلك المحاولات الاولى يثير عدداً عظيماً من الاسئلة التي لا يجيب عنها .

تتأثر محاولات الفرد الاولى لمواجهة الحالات الجديدة ايضاً

بما قـــد ندعوه بردوده المعتادة التعميمية (Generalized) . وسنبحث في طبيعة هذه الردود في مكان آخر من هذا الفصل . وكما اشرنا آنفاً فان كل حالة هي شكل متكامل يتضمن عناصر عديدة . وحتى عندما يأتي شكل الحالة جديداً على الفرد، فانه يكون قد عرف بعض عناصرها في قرائن اخرى، الامر الذي يجعله ينزع ، لاشعورياً في الغالب ، الى نقل عدد من عناصر السلوك من الانماط الثابتة الى النمط الناشىء المرتبط بالحالة الجديدة . وعليه فان كلاً منا قد اختبر حالات اتصل فيها بصاحب سلطة . فمع ان لكل من هذه الحالات نمطاً خاصاً من السلوك التلقائي، الا ان هناك عناصر مشتركة بين هذه الانماط كلها . وتضم هذه العناصر مواقف خاصة من السلطة بحد ذاتها كما تضم بعض الافعال التي ترمز الى اعتراف الفرد بالسلطة ورغبته في الاذعان لها . فعندما تواجهه حالة جديدة يبرز فيها عامل السلطة المألوف ، فلا بد وان تدخل حتى في اولى محاولاته لمواجهتها هذه العناصر المشتركة بين الردود التلقائية في سلوكه .

ويبدو ان تحول الردود الناشئة الى ردود تلقائية مقررة يتم وفقاً لنهج واحد بغض النظر عن الاساليب ذاتها التي تم بواسطتها استحداث الرد الناجح الاول . وكلما تكررت الحالة وتكرر الرد ، تعدل الرد على نحو يزيد فعاليته في بلوغ الاهداف الظاهرة ويكيّفه طبقاً لصفات الفرد الخاصة . وطالما ان جزءاً كبيراً من السلوك الذي ينطوي عليه الرد يظل على مستوى الشعور خلال

الشطر الاكبر من مرحلة التكيف، فهو قابل للتعديل المقصود الهادف – وان كل العمليات التي تدخل في نشوء الردود الاولى قد تدخل في عملية تكيفها فيما بعد . وقد تتعدل مختلف العناصر داخل نمط الرد الناشيء او تستبدل كلياً نتيجة للتقليد او للتجربة والخطأ، في حين ان دور العمليات الذهنية في التكيف يبدو اكثر اهمية من دورها في تطور الردود الاولية . فالافراد يميلون الى تقليد الانماط الحضارية لمجتمعهم عندما تواجههم حالة جديدة، ثم يفكرون فيها عندما تتكرر الحالة فيحاولون تكييف هذه الانماط حسب حاجاتهم الذاتية . ان الانماط الحضارية اشبه بالثياب الجاهزة بالنسبة للفرد ومع انه يجدها قريبة من طلبه الا انها لا توافقه تمام الموافقة حتى يجري عليها بعض الاصلاح . وما يصدق على الثياب يصدق على الانماط، فالانماط داخل الحضارة الحقيقية تعين حدوداً نهائية للتعديلات التي يمكن اجراؤها الا انها تكون عادة من الاتساع بحيث تناسب الجميع باستثناء اصحاب الشذوذ الصارخ .

على اننا لا نفهم تماماً ما يحدث بالضبط خلال فترة التكيف والتصليح مع انها، فيما يبدو، مجال خصب للبحث . فالتكيفات التي يترتب عليها ازدياد الفعالية بالنسبة لاهداف الرد الظاهرة، قلما تصل الى الحد الذي يحقق كل امكاناتها . وهناك على الاقل شواهد كثيرة مستمدة من ميادين السلوك الظاهر تدل على ان الافعال التي لا تسهم مباشرة في بلوغ مثل هذه الاهداف لا يتم

التخلي عنها آلياً خلال مرحلة التكييف . ولقد تأكد هذا مراراً في دراسة الحركات التي تستخدم في مختلف المهن . اذ انه يمكن دائماً تقريباً تبسيطها واختصارها مع كسب في الفعالية . ويبدو ان الافعال التي لا تضر فعلاً عندما ترتبط بالرد يحتمل ان تندمج بالشكل المتكامل للرد وتبقى جزءاً منه بقوة الاستمرار.

يبدو ان التعديلات الموجهة نحو تكييف الرد مع الخصائص المميزة للفرد ابعد اثراً . وعند احداث التعديلات لا بد من النظر بعين الاعتبار الى العوامل الفيسيولوجية كالقوة مثلاً والدقة وسرعة الادراك والقدرة على تنسيق الحركات العضلية، الخ . ولا بد كذلك، كما يحدث فعلاً، من النظر بعين الاعتبار الى الكل المعقد (Complex) للردود الثابتة عند الفرد . وبعبارة اخرى لا بد للرد الجديد من ان يأتي منسجماً مع شكل الشخصية المتكامل الموجود قبله وذلك حتى يتم دمجه، اي الرد، في الشكل بدون أي اخلال او تصادم خطير . وتقوم الردود التلقائية القديمة بدورها الفعال في اعطاء الردود الجديدة اشكالها الخاصة. وحتى على مستوى السلوك البسيط الظاهر يبدو ان هنالك نزعة قوية الى دمج اشكال متكاملة من الحركات التي نشأت قبلاً مع ردود سابقة في الردود الناشئة . فمن الامور الواضحة للعيان ان في تقنيات الحضارات البسيطة سلاسل معينة من الحركات قابلة للاستخدام في ضروب مختلفة من الصناعة . وقد يصح هذا حتى عندما تكون المواد المستعملة مختلفة اختلافاً بيناً في خصائصها

وفي صلاحيتها للاستعمال . وهكذا فان الجماعة التي اعتادت ان تصنع السلال اللولبية تستخدم اسلوباً لولبياً عندما تنتقل الى صناعة الخزف .

اما بالنسبة للردود الاكثر تعقيداً وتعميماً فيبدو ان لدى الفرد كذلك نزعـــة قوية الى تكييف رده الاول مع اية حالة تكييفاً يناسب مواقفه الثابتة . ثم انه يحوره ويكيفه ايضاً طبقاً للردود التي يثيرها سلوكه في الآخرين، واقعية كانت ام مرتقبة . وخلال نشوء اي رد وتحوله الى فئة الردود التلقائية يتعدل على نحو لا يثير الا الحد الادنى من الصراع العاطفي في داخل الفرد، والحد الاقصى من الردود المناسبة في بقية افراد المجتمع . وطالما ان الحالات التي يمكن فيها بلوغ هذين الهدفين بلوغاً كاملاً وفي وقت واحد قليلة جـــداً، فان النتيجة تتخذ عادة شكل حل وسط . ويمكن تقييم هذه التسوية من زاوية او اخرى . ويقرر نوع الزاوية ما اذا كان الفرد يفضل الراحة الداخلية ام رضى المجتمع، ولا بد للرد كي ينجح، ان يحقق جزءاً من كلتا النتيجتين ولكن النسبة التي قد ترضي الشخص المنبسط لا ترضي المنطوي على نفسه، والعكس بالعكس .

ونجد خلال نشوء عادة جديدة ان عمليات التعديل والاندماج في شكل متكامل للشخصية وازدياد التلقائية، تحدث جميعاً على ما يبدو في آن واحد. ويتولد من هذا في النهاية رد تلقائي تكيف

على نحو يحقق اهدافه الظاهرة ويلائم تصرفات الفرد التلقائية الاخرى . ويمد الشكل المتكامل كله للردود ظله على كل شئون العيش تقريباً وبهذا يمكن تصريف تلك الشئون بلا منازعات ولا صراع عاطفي خطير وبدون حاجة الى ممارسة القدرات الفكرية. على ان تنظيم الشكل المتكامل للشخصية وانتظامه في نمط معين امران معقدان الى حد ان اساليب تحليل الاشكال المتكاملة على هذا الاساس فطرية الى درجة انه يبدو من الاسلم لنا ان لا نحاول التصدي لهذه النواحي من الشخصية . وعلى كل، يبدو انه من الممكن تحليل محتويات الاشكال المتكاملة الثابتة للشخصية الى مختلف انواع الردود التلقائية التي تشتمل عليها .

وعند البحث عن اساس لتمييز ردود الفرد التلقائية يبدو ان اهم عامل بالنسبة للعلاقات بين الشخصية والحضارة هو دقة الردود (Specificity of Responses) . وبعبارة أخرى قد نتخذ نقطة الانطلاق درجة ارتباط رد معين بحالة معينة واستبعاد كل الحالات الاخرى . ولكي نفهم طبيعة هذه العلاقة علينا ان نتذكر ان كل رد كامل وكل حالة تثير مثل هذا الرد هما شكل متكامل يتألف من عناصر عديدة . وما يحدث في ردود الفعل الاعتيادية بالغة الدقة هو ان الحالة المعينة بكاملها تثير رداً معيناً بكامله يكون صالحاً لمواجهة كل الظروف التي تفرضها الحالة نفسها . ومع ذلك فهنالك ايضاً ردود تلقائية – اي اعتيادية – اضيق نطاقاً، وتثيرها العناصر الداخلة في شكل الحالة المتكامل

اكثر مما تثيرها الاشكال المتكاملة بمجموعها . وقد يبدأ رد من هذا النوع باثارة من حالة تتضمن العناصر التي يقترن بها، وحتى يمكن ان تثيره حالة جديدة بمجموعها اذا كان قد تبين مسبقاً وجود هذه العناصر داخل شكل الحالة المتكامل . فعلى هذا النحو ينشأ رد من القلق على عدد كبير من الاشكال المتكاملة للحالة التي يشتمل كل منها على عنصر التهديد للفرد . والردود من هذا النوع تعميمية الى حد كبير لا يجعلها فعالة بذاتها، فهي من الناحية الوظيفيـــة ردود جزئية تعمل في الاساس بوصفها عناصر في مختلف الاشكال المتكاملة للردود المحددة . ولكنها تلعب دوراً مهماً في تكوين الردود الاكثر تحديداً وتندمج فيها في النهاية . لذلك نلاحظ ان رداً اولياً من القلق يؤثر في مختلف ضروب السلوك الظاهر الذي تثيره حالة خاصة ومن ثم يؤثر على الشكل النهائي للرد المحدد على هذه الحالة .

وخلاصة القول ان الرد المحدد هو الذي تثيره حالة واحدة او عدد قليل جداً من الحالات لا اكثر والذي يكون بحد ذاته فعالاً بالنسبة لهذه الحالات . اما الرد التعميمي فهو الذي تثيره عدة حالات مختلفة تشترك في عوامل خاصة ولكنه ليس فعالاً بحد ذاته بالنسبة لهذه الحالات . وعلى اساس هذا التمييز يمكن لنا ترتيب ردود الفرد التلقائية في سلسلة ، في احد طرفيها الردود المحددة تحديداً بالغاً وفي الطرف الآخر الردود التعميمية، الى حد يجعلها تمتد فوق مناطق واسعة من سلوك الفرد . وينبغي ان

نؤكد ان هذه السلسلة ليست الا وسيلة للوصف فحسب . ولا تطابق مراكز مختلف الردود فيها اي تسلسل لنشوئها .

ان اشد انواع الردود تحديداً هو نمط من السلوك متكيف بدقة حسب اوضاع تفرضها حالة معينة وينشأ عن هذه الحالة دون غيرها . والواقع انه من الصعب ان نجد امثلة على هـذا النوع من الردود ، والامثلة التي يمكن ان نسوقها عليه تقتصر عادة على سلوك بسيط جداً . وقد نجد في الحركات المكررة التي نستخدمها لدى التجذيف في قارب يدير دفته رجل آخر مثلاً على ذلك نأخذه من مجتمعنا . وقد لا يصدق هذا المثل على بعض المجتمعات الاخرى حيث يرتبط هذا السلوك الظاهر نفسه بحالات اخرى ، كالاشتراك في رقصة المراكب مثلاً . فالردود (المعتادة) التي ينتظم فيها السلوك الظاهر في انماط كاملة ، والتي قد يثيرها اي من مجموعات قليلة من الحالات ، اكـثر شيوعاً من ذلك . فالسلوك الذي تشتمل عليه عملية الحلاقة او الاستحمام هو بالنسبة للرجل الامريكي امر آلي يجري على وتيرة واحدة بما فيه الموسيقى التي تصاحبه . لكن يمكن لهذا الشكل المتكامل من الرد ان ينشأ عن حالات مختلفة كالنهوض لابتداء يوم من العمـل ، او الحاجة الى الظهور بمظهر لائق لتلبية دعوة عشاء مثلاً .

وقد تبين من تجارب الجميع ان اكثر الردود المحددة التي ثبتت تماماً خالية تقريباً على ما يبـدو من المحتوى الانفعالي .

ويصح هذا حتى عندما تكون الحالات التي اثارتها قد اثارت ردوداً انفعالية عنيفة في المرة الاولى . فكثير من الاشخاص الذين عانوا لاول مرة رد فعل من الخوف الشديد حين اضطروا الى التحدث امام الناس للمرة الاولى وجدوا ان رد الفعل يضعف ويتلاشى مع تكرار التجربة . ويظهر انه لا يوجد تفسير عـام مقبول لهذا ، ولا يزال ميـــدان الظواهر الانفعالية بكراً الى درجة اتردد معها في تقديم اي تفسير . وعلى كل حال فمن الحقائق الثابتة ان معظم الحالات الانفعالية تصحبها تغييرات فيسيولوجية ، وان الاحساسات التي يميز بها الفرد هذه الحالات مرتبطة بهذه التغييرات . وفي الانفعالات القوية كالخوف مثلاً ، تقوم ردود الفعل الفيسيولوجية بحشد طاقات الفرد الاحتياطية وتعـــده للقيام بنشاط زائد . واذا تكررت اية حالة ونشأ رد قوي عليها واستحال الى رد تلقائي ضعفت الحاجة الى الطاقة المحشودة . كما ان التحسن في تقدير الحالة ، اي ادراك انها اقل صعوبة او تهديداً مما بدت عليه اول الامر لا بد وان يعمل ايضاً على التباطؤ في حشد الطاقة . فاذا توفر وجود العاملين معاً في وقت واحد فقد يأخذ الرد الفيسيولوجي في الضعف الى ان يصل حـداً لا تسجل معه اية احساسات ، اي لا يحس المرء معه بأي انفعال . وقد يبدو هذا التفسير صالحاً لتعليل اختفاء تلك الانفعالات التي تقترن بتهديد الفرد . ولكنه اقل صلاحية لتفسير الحالات التي تثير في البدء احساسات باللذة بالرغم من ان الرد الانفعالي فيها غالباً ما يخف على ما يبدو مع التكرار .

وعندما ننتقل من الردود المحددة الى الردود التعميمية نلاحظ نقصاً متزايداً في مدى السلوك الظاهر وفي اتقانه. فالرد التعميمي رد تثيره عدة حالات او على الاصح، يثيره عامل مشترك بين مجموعة من الحالات. ويندر ان يأتي مثل هذا الرد كافياً بحد ذاته لمواجهة كل الحالات في تلك المجموعة. بل يظهر بوصفه جزءاً من ردود الفرد الاولية المشوشة على حالات جديدة ويؤدي وظيفة عنصر من عناصر الشكل المتكامل للرد **المحدد** الذي ينشئه الفرد بطريق التكرار. والقاعدة هي انه كلما كان السلوك الظاهر في اي رد تعميمي بسيطاً، كان عدد الردود المحددة التي يمكن له ان يندمج فيها كبيراً. وعلى هذا فان نمطاً بسيطاً جداً من الحركات العضلية يمكن له الاندماج في عدد من الردود التقنية الاعتيادية اكبر من عدد الردود التي يمكن لنمط اطول واكثر تعقيداً الاندماج فيها.

والواقع ان كثيراً من اشد ردود الفرد تعميماً تشتمل على عنصر ضئيل جداً من السلوك الظاهر التلقائي المنظم. وكلما اقتربنا من هذا الطرف من السلسلة نجد انفسنا ازاء ردود مستترة قد تتخذ، عندما تتجلى، اشكالاً كثيرة مختلفة. وبعبارة اخرى ننتقل من ميدان العادات بالمعنى الشائع للكلمة، الى ميدان **القيم والمواقف**. ولقد استعرنا هذين الاصطلاحين من العلوم الاجتماعية. وبالرغم من ان استعمالهما في تلك العلوم يثير شيئاً كثيراً من البلبلة الا ان لهما معنى اساسياً معترفاً به يجعلهما اكثر

ملاءمة لاهدافنا من الاصطلاحات الجديـــدة الغريبة . ويحقق اغراضنا هنـــا ان نعرف « القيمة » (Value) بانها اي عنصر مشترك في مجموعة من الحالات قادرة على اثارة رد مستـــتر في الفرد . كما يمكننا تعريف الموقف (Attitude) بانه الرد المستتر الذي يثيره ذلك العنصر . ويبدو ان محتويات امثال هذا الرد انفعالية الى حد كبير الا انها قد تشمل اشكالاً اخرى من الردود كالردود المتوقعة مثـــلاً . وتؤلف القيمة والموقف معاً شكلاً متكاملاً من المثير والرد سنشير اليه باسم « نظام القيمة والموقف» (Value - Attitude System) ، وحالما تثبت هذه النظم عند الفرد تأخذ في العمل آلياً ودون مستوى الوعي في الاكثر . ولقد يكمن نظام واحد من هذه الانظمة وراء عدد من انماط السلوك الظاهر المختلفة ويزودها كلها بالدوافع . وهكذا فان « نظام القيمة والموقف » المتصل بالقسوة لدى اي فرد قد يحمل صاحبه على الانسحاب في حالة من الحالات او التدخل في حالة اخرى .

على ان الاهمية العملية لانظمة القيمة والموقف تعود بالدرجة الاولى الى محتواها الانفعالي. فالسلوك الذي لا ينسجم مع النظام الذي يسير بموجبه عدد من الافراد قـــد يبعث ردود الخوف والغضب او على الاقل عدم الرضى . ويصدق هذا بغض النظر عما اذا كان السلوك سلوكه هو او سلوك الآخرين . وهكذا نجد الذي يقوم بعمل مغاير لاحد انظمة الموقف والاتجاه الخاصة به

يشعر بشيء كثير من الاضطراب الانفعالي قبل قيامه بالعمل وبعده ، وفي اكثر الاحيان يتعرض لرد فعل من هذا النوع حتى ولو عرف ان العمل لا يستتبع تأنيباً او قصاصاً . ويخف هذا الاضطراب عند تكرار العمل ولكنه يظهر ثانية مع كل حالة جديدة يدخل فيها هذا النظام ذاته. وعلى هذا النحو ذاته تبعث تصرفات الآخرين التي تناقض هذه الانظمة ردوداً انفعالية حتى وان خلت من اي تهديد للفرد . وهذا امر مألوف لدى من اضطر الى التكيف مع الحياة في مجتمع وحضارة غريبين، فحتى عندما يظهر افراد مثل هذا المجتمع منتهى الود والتعاون، فان مجرد ملاحظة بعض انماط سلوكهم قد تزعج الغريب كثيراً . ولهذا نرى ان معظم الامريكيين يردون وهم في الاقطار اللاتينية بعنف ازاء بعض العادات المحلية التي لا تتفق مع ما ألفه الامريكيون من تواضع وحرص على الصحة . كما يجدون صعوبة في التكيف مع القسوة العفوية على الحيوان التي تميز عدداً من الحضارات، كما انهم يتأثرون كثيراً في اول مرة يرون فيها احداً ينتف ريش ديك حي .

وقد تختلف نظم الموقف والاتجاه كثيراً من حيث تجديدها . ثم ان الاساس الذي نتخذه لتحديد مراكز الردود في السلم الذي وضعناه هو اساس موضوعي، وكلما كان عدد الحالات التي تثير رداً معيناً قليـــلاً قوي تحديد هذا العدد . وعلى هذا الاساس نجد بعض الردود التي نتخذ فيها مواقف خاصة اكثر تحديداً من

معظم الردود البسيطة في السلوك الظاهر، ومع ذلك فان بعض المواقف يبلغ درجـــة من التعميم نادراً ما يبلغها اي من الردود الظاهرة . وعليه فان هناك مواقف تثيرها حالات كثيرة الى درجة تمكـّنها من التأثير في الجزء الاكبر من سلوك الفرد، وعلى اساس مثل هذه المواقف التي بلغت درجة كبيرة من التعميم ننسب الى الافراد طبيعة التفاؤل او التشاؤم، والتصديق او التشكك والانطواء او الانبساط . وفي مثل هذه الحالات نجد ان مجرد تسجيل حالة جديدة لا بد من مواجهتها بغض النظر عن صفاتها الخاصة ، يكفي لاطلاق عدة ردود وترقبات انفعالية من نوع خاص . وتكمن امثال هذه المواقف التعميمية وراء انظمـــة القيمة والموقف الاكثر تحديداً وتؤثر في نشوئها بطريقة شديدة الشبه بالطريقة التي تكمن بها هذه الانظمة وراء الانماط المعتادة من السلوك الظاهر، وتؤثر فيها . وهكذا نرى ان المرء الذي لا يشعر بالطمأنينة، ينظر الى كل الحالات التي تحتاج الى التعامل مع من هم اعلى منه مرتبة على انهـــا خطرة عليه وتهدده، ولذلك يتصرف تجاهها بصورة آلية يغلب عليها الخوف والعداء .

وجدير بالذكر ان الكثير من انظمة القيمة والموقف التي يشترك فيها وينقلها افراد المجتمع اكثر اهمية لمصلحة المجتمع ورفاهه منها لمصلحة الفرد ورفاهه . وهكذا نرى ان للجبان في الظروف العادية حظاً اكبر من حظ الرجل المقدام في البقاء على قيد الحياة ومع ذلك فكل المجتمعات تحاول ان تغرس في ابنائها

نظماً من القيمة والموقف تشجع السلوك الجريء، وبما ان الجرأة ضرورية للدفاع الناجح عن الجماعة، فان هذه النظم تساهم في بقاء المجتمع على حساب الافراد . ويكتسب الفرد نظم القيمة والموقف المرغوب فيهـــا رغم ما تلحقه به من اذىً طمعاً في المكافآت الاجتماعية التي تقترن بدخول تلك النظم واندماجها في انماط معينة من السلوك الظاهر . وفي حين ان السلوك الجريء قد يكلف المرء حياته على مر الزمن، الا انه يعود عليه في هذه الاثناء بالاحترام والتقدير والاعجاب . ونجد هدف الحصول على الردود المستحبة من الآخرين جنباً الى جنب مع كل هدف من اهداف الفرد القريبة المحددة . ولا يمكن لاي نمط من السلوك ان يبلغ اقصى النجاح وان يعود على صاحبه بالمكافأة المرجوة الا اذا ساعد على تحقيق الغرضين معاً .

كنا حتى الآن نبحث في نشوء الردود السلوكية التلقائية وطبيعتها وعملها . وبقي علينا ان نعالج ناحية اخرى من نواحي القضية، وهي زوال تلك الردود . فالشخصية ليست استمراراً فحسب، بل هي ايضاً استمرار في حالة تغير دائم . فعملية انشاء الردود الجديدة ودمجها والقضاء على القديم منها تستمر طول حياة الفرد . وبدون هذه المرونة يستحيل عليه ان يعيش في عالم يجد فيه محيطه الخارجي وامكاناته الذاتية الخاصة في حالة تغير مستمر . لكن يبدو ان هناك اتصالاً وثيقاً جداً بين السهولة التي يمكن بها القضاء على رد فعل معين وبين مركزه في

سلم التحديد . ونجـــد بوجه عام انه كلما ازداد الرد تحديداً كان القضاء عليه ايسر واسهل، والسبب في ذلك واضح كل الوضوح . فلقد بينت لنا الاختبارات التي اجريت في المختبرات ان العادات تزول اما عندما تعجز عن تحقيق الاهداف المرجوة او عندما يتعرض الفرد للعقاب الشديد . ويمكن للرد المرتبط بحالة واحدة او بعدد قليل جداً من الحالات ان يقع تحت تأثير ظروف قد تؤدي بسهولة الى زواله بسبب تغيرات في المحيط او غيرها من التغيرات . ونجد من الناحية الاخرى ان الردود الاكثر تعميماً قد تكافأ في بعض الحالات حتى وان هي ادينت او لم تكافأ في حالات اخرى . ومن المعروف انه في حين ان انماط السلوك الظاهر المحددة سهلة الزوال فانه من الصعب جداً القضاء على نظم القيمة والموقف . فهي تنزع الى البقاء حتى في الحالات الكثيرة عندما يحول حائل دون التعبير عن نفسها في الظاهر ، كما تنزع الى الظهور بنفس القوة عندما تظهر حالات جديدة تشمل عامل القيمة المعينة .

ويبدو ان هنالك ايضاً بعض الترابط بين مركز الرد في سلم التحديد وبين السهولة التي يمكن بها تثبيته في اي وقت خـــلال دورة الحياة . والترابط في هذه الحالة اقل وضوحاً منه في حالة الزوال . وتستحق هذه القضية كلها المزيد من البحث . ويبدو بوجه عام انه من السهل تثبيت ردود محددة ، وبخاصة تلك التي تنطوي في الاساس على سلوك ظاهر ، في اي وقت خلال دورة

الحياة . والاعتقاد سائد بان تثبيت ، حتى هذه الردود ، خلال مرحلة الطفولة اسهل منه في المراحل التالية من الحياة ، ولكنني لست متأكداً من ان احداً قد برهن على ذلك. ويبدو من الناحية الاخرى ان تثبيت الردود التعميمية من نوع القيمة والموقف سهل خلال الطفولة وصعب جداً بعد بلوغ سن الرشد . ومع ان الاسباب غير واضحة فمن الممكن الاقدام على اقتراح تفسير او اثنين ممكنين لها . لقد اشرنا آنفاً الى ان نظم القيمة والموقف تكمن وراء مجموعات كاملة من الردود الاكثر تحديداً وتؤدي وظيفتها بوصفها عناصر في هذه المجموعات . فمن الممكن اذن ان ينطوي اتخاذ نظام جديد من القيمة والموقف ، عند الكبار ، ان ينطوي بالضرورة على تعديلات في ردوده المحددة الثابتة بحيث يفوق ضررها فائدتها . وبلغة علم النفس يفوق العقاب الناجم من مثل هذا الرد المكافأة المتوقعة . وتكتنف هـــذه الظروف ذاتها زوال نظم القيمة والموقف عند الكبار ، وذلك لان الاندماج المعقد لهـذه النظم في مجموعات اكبر من الردود المحددة يجعل زوالها مصدراً للازعاج . على ان هناك احتمالاً آخر وهو ان ما نلاحظه من نزوع المواقف الاكثر تعميماً الى الثبوت في مرحلة الطفولة يقترن بشيء من العجز عند الطفل الصغير عن تمييز الفروق بين الحالات المترابطة. ويضاف الى هذا عدم القدرة على انشاء اشكال متكاملة واضحة الحدود من السلوك المحدد في كل حالة من مجموعة من الحالات المترابطة . وهكذا فان مساواة عدد من الحالات على اساس عامل مشترك ، كوجود شخص

كبير مثلاً ، ونشوء رد تعميمي واحد عليها كلها قد ينتهي ، اذا نال الرد قبولاً وتشجيعاً ، الى تقرير موقف معين . وقد ينعكس هذا الموقف بدوره فيما بعد في انماط تالية واكثر تحديداً من السلوك . على ان تقديم مثل هذه التفسيرات في الحالة الحاضرة التي بلغتها معرفتنا ، هو مجرد تخمين لا اكثر .

ان ما عرضناه آنفاً عن تكوين الشخصية ومحتواها ليس سوى محاولة لترتيب مجموعة من الوقائع وتنسيقها تنسيقاً واضحاً. ومن الممكن ترتيب الوقائع ذاتها على اشكال عديدة ، تتوقف اهمية كل شكل منها على مدى فائدته العملية . وليس لدينا مقياس صحيح كل الصحة يمكن لنا ان نقيس به مختلف التنظيمات. ثم ان التنظيم الذي قد يكون اكثر نفعاً في معالجة مجموعة من القضايا قد لا يكون نافعاً لمعالجة غيرها . ويبدو ان الجزء الاكبر من الجدل الذي يبعث الحياة في ميدان علم النفس قد نشأ اصلاً عن الميل الطبيعي عند المصنفين الى التحيز للتنظيمات التي يضعونها ، او عن عجز الباحثين عن تمييز الظواهر المألوفة عندما توصف لهم بلغة لا يألفونها . ويزيد في هذه الصعوبات تضارب المصالح المباشرة لمختلف مدارس علم النفس . فلقد ركز السلوكيون (Behaviorists) اهتمامهم في النواحي السلوكية الظاهرة للرد تمشياً مع ولائهم للاساليب المتبعة في اجراء الاختبارات المضبوطة . اما علماء النفس من اصحاب مذهب الباطن فيركزون اهتمامهم في النواحي المستترة . وهو لعمري

بديهي بالنسبة لطبيعة المواد التي تناولوها . فقد بدأ علم النفس الباطني (Depth Psychology) كفرع ثانوي للعـلاج النفساني وعلى الطبيب ان يتناول مريضه بالشكل الذي يجده فيه .

لقد افترضت في النصوص التي عرضتها ان كل رد انمـا هو شكل متكامل يضم العناصر الظاهرة والمستترة معاً . واكدت في الوقت ذاته ان نصيب كل من هذين النوعـــين من العناصر بالنسبة لمجموع المحتوى الذي يشتمل عليه الشكل المتكامل للرد قد يختلف اختلافاً كبيراً . وبالرغم من بعض الاستثناءات يمكننا ان نضع القاعـــدة التالية وهي انه كلما ازداد الرد تحديداً كان نصيبه من العناصر الظاهرة اكبر من العناصر المستترة ، وعلى عكس ذلك فكلما كان الـــرد اكثر تعميماً كانت العناصر المستترة فيه اكبر من الظاهرة . وهكذا نجد في احد طرفي سلم التحديـد العادات من النوع الذي يهتم به السلوكيون اهتماماً رئيسياً ، وفي الطرف الآخر المواقف التي يركز فيها علماء الباطن جل اهتمامهم . وعلى وجه العموم يمكن لنا ان نعتبر مفهوم الباطن الذي يستخدمه هؤلاء العلماء معادلاً للتعميم في بحثنا . ولم يسبق لاحـــد ان قام باي محاولة لعزل مجموعات خاصة من الردود الباطنية او من الردود العامة على اساس وظائفها الخاصة . ويعني هذا ان المفاهيم مثـــل الهو (Id) والانا (Ego) والانا الاعلى (Superego) لا يمكن تطبيقها هنا . وان صحة مثل هذه المميزات الوظيفية الفارقة ليست موضوع بحث ، ولكننا لا

نرى ضرورة لبحثها هنا. ويمكننا ان نضيف الى ذلك ان المرض النفساني حسب منطقنا يعتبر رداً تعميمياً واحداً من نظم القيمة والموقف عند الفرد ، ويختلف عن باقي نظم القيمة والموقف لدى الفرد بانه «فردي» تماماً لا يشاركه فيه معظم ابناء المجتمع الذي ينتمي اليه ، اما نظم القيمة والموقف التي يشترك فيها الكثيرون فهي عادة متكيفة مع انماط السلوك الظاهر التي قررتها حضارة المجتمع ، ولذا يستطيع المرء ان يعبر عنها في سلوكه الخاص بدون ان تؤدي به الى صعوبات او تضارب . اما النظم الفردية للقيمة والموقف فتحمل الذين يملكونها على اكتساب ردود خاصة من السلوك الظاهر ليست متكيفة مع الواقع الحضاري والاجتماعي الذي ينبغي لهؤلاء الاشخاص ان يعملوا في كنفه . ويؤدي هذا الافتقار الى التقدير (Lack of Judgment) الى نزاع داخلي وشعور بالفشل (Frustrations) كما يثير في الآخرين ردود فعل غير مستحبة .

أشعر بأن الترابط بين الآراء التي عرضتها وبين مفهوم نظام العكس (Projective System) عنـــد الفرد على الصورة التي وضعها كاردنر[١] يستحق اهتماماً خاصاً، وبخاصة انني ادين بالكثير

---

١ A. Kardiner, Psychological Frontiers of Society (New York, Columbia University Press, 1944).

من اهتمامي بسيكولوجية الشخصية واطلاعي عليها لاشتراكي معه في بحوث مختلفة في العلاقات المتبادلة بين الشخصية والحضارة. واعتقد انه في الامكان اعتبار نظام العكس عند الفرد مطابقاً لمجموعات كاملة من الردود التعميمية اكثر محتوياتها مستتر وتثبت في الفرد نتيجة لتجاربه. وتؤدي هذه الردود وظيفتها بوصفها عنصراً في تقدير الفرد للحالات الجديدة كلما طرأت، وفي استحداثه لردود اكثر تحديداً وظهوراً. ويبدو ان تثبيت الردود العامة التي تؤلف نظام العكس يتم على الاكثر خلال مرحلة مبكرة من تكوين الفرد. وبما ان التجربة التي تنشأ منها الردود تنجم من الاحتكاك بسلوك الآخرين ذي الانماط الحضارية، فان معايير نُظُم العكس تنزع الى الاختلاف باختلاف المجتمعات. ولهذه الحقيقة تفريعات مهمة لتفهم ميادين واسعة من الظواهر الاجتماعية والحضارية كما تظهر في الزمان والمكان على السواء.

وقد كان هدفي الرئيسي في عرض الآراء السابقة ان تساعد على كشف العلاقات بين الظواهر الحضارية والنفسانية. وبما ان الفصل القادم سيقتصر على بحث دور الحضارة في تكوين الشخصية، يمكننا الآن ان نحصر اهتمامنا بالعلاقات الثابتة. فالحضارات، كالشخصيات، استمرارات في حالة تغير دائم، وعليه فان لها عمليات خاصة في النمو، وفي تثبيت انماط ردود

جديدة وازالة انماط ردود قديمة . وتقابل هذه العمليات تلك التي تجري في داخل الشخصية وتستند فوق كل شيء الى قدرة افراد المجتمع على انشاء اشكال جـــديدة من السلوك ، وعلى قدرتهم على التعلم والنسيان . وعلى كل حـــال فان العمليات الحضارية تعمل عادة في فترات اطول من حياة اي فرد من افراد المجتمع . كما انها تختلف عن العمليات التي تدخـــل في تكوين الشخصية الفردية من عدة وجوه مهمة . ولذلك يبدو ان الشروع في تكوين اشكال جديدة من الردود السلوكية ليس وظيفـــة المجتمع بكامله بل وظيفة فرد او افراد قلائل على الاكثر من الاشخاص الذين يتألف منهم . وبعبارة مألوفة لا يوجد اختراع بدون مخترع ، زد على ذلك ان تثبيت نمط جديـــد من السلوك ودمجه نهائياً في حضارة المجتمع ليسا دائماً مسألة تعديل وتكييف لنمط واحد من انماط الردود ، فمن المرجح ان تسبقهما فترة تتنافس فيها على رضى المجتمع عدة انماط ردود تتصف كلها بحسن التنظيم والتكيف .

ومما يستلفت النظر انه ليس للعمليات الحضارية ، بل ليس للحضارة كلها على ما يبدو الا تأثير ضئيل على العمليات التي تدخل في نشوء الشخصية وفي ادائهـــا لاعمالها . فالعمليات الشخصانية (Personality Processes) تنشأ من الخصائـــص الفطرية للكائن البشري ، وتمثل امكانات الفرد النفسانية في

حالة العمل . ومن خلال الخبرة التي يستمدها الفرد من اتصاله بالحضارة تقرر الحضارة جزءاً من المواد التي تستخدمها العمليات الشخصانية في نشاطها . ولقد اوردنا امثلة على ذلك خلال بحثنا في دور العمليات الفكرية في تطوير انماط جديدة من الردود ، وبيّنا كيف ان المواد المقررة حضارياً ، بما في ذلك المعرفة ، تؤثر في النتائج التي تترتب على اداء ممارسة العمليات الشخصانية لاعمالها . وعلى كل حال ، فان مثل هـذه المواد مستمدة من محتوى الحضارة وليس من عملياتها في حـــد ذاتها . فعمليات الحضارة تقابل العمليات الشخصانية من عدة نواحي ، اما القدرة على البت في وجود علاقات متبادلة دقيقة بين الاثنتين فمسألة مشكوك فيها .

وعندما نتحول الى المقارنة بين محتوى الحضارة ومحتوى الشخصية نجد ان العلاقات بينهما اكثر وضوحاً . فان الرد التلقائي الكامل الذي يصدر عن الفرد يكاد يعادل تماماً نمط الحضارة الحقيقي من حيث خصائصه وعلاقاته بالشكل المتكامل الاكبر الذي هو جزء منه . وللاختصار سندعو الردود الفردية من هذا النوع التلقائي من الآن فصاعداً بالعادات . وكلا الاثنين ، العادة والنمط الحضاري ، يمثلان سلسلة محدودة من الردود السلوكية التي تثيرها مجموعة محدودة من الحالات . وتتعادل الحالات المثيرة على اساس عناصرها المشتركة ولا ترتبـــط

اختلافاتها الفردية باختـــلافات محددة بين الردود التي تتضمنها مجموعة الردود المقابلة لها . وفي حالتي العادة والنمط الحضاري يمكن لنا ايضاً ان نضع طرازاً لسلسلة الردود بالوسائـــل الاحصائية . ولقد اشرنا في فصل سابق الى ان طراز العادة بمفردها لا يتطابق تماماً مع طراز النمط الحضاري الذي تتعادل العادة معه . وكلا النمط الحقيقي والعادة يتكيفان باستمرار مع العناصر الاخرى في الشكل المتكامل الذي يؤلفان جزءاً منه . وتجري جنباً الى جنب عمليـــة تكيفهما مع عمليات التثبيت والدمج .

وعلى الرغم من اننا لا نجد في الوقت الحاضر معالجة لمحتوى الحضارة استهدفت تنظيم الانمـــاط الحضارية في سلسلة من التحديدات السلمية ، فمن الممكن تطبيق هذا المبدأ عليها بالسهولة التي نطبقه فيها على العادات . فالانماط الحضارية تشمل جميع الانماط ابتداء من تلك التي تقدم رداً مناسباً على حالة واحدة وعبر نظم القيمة والموقف حتى الردود التعميمية . واحب ان ألفت نظر القارىء الى انني قد ميزت في فصل سابق بين النواحي الظاهرة والنواحي المستترة من الحضارة . وقيمة هذا التمييز الرئيسية هي انه يفرق بوضوح بين عناصر الحضارة التي يمكن ان نتأكد من وجودها بالمشاهدة المباشرة وتلك التي لا يتسنى لنا التأكد من وجودها الا بالاستنتاج . والواقع ان كل نمط

حضاري يتضمن عناصر ظاهرة وعناصر مستترة قد انتظمت في وحدة تعمل فيها معاً . ويميل المرء الى تطبيق العلاقة المتبادلة بين التحديد ومحتوى العادة الذاتي على ميدان الانماط الحضارية . ومما يشبع رغبة الباحث المنظم ان يقام البرهان على ان الانماط الحضارية المحددة تضم عادة نسبة ضئيلة من العناصر المستترة ، وعلى ان الانماط الحضارية العامة تضم نسبة عالية منها . ويبدو ان الانماط هذه تسير في هذا الاتجاه . فمما لا ريب فيه ان المحتوى المستتر في نظام القيمة والموقف الحضاري أعلى نسبياً في معظم الحالات مما هو عليه في النمط الحضاري لصناعة السلال مثلاً ، ويمكن للمرء على كل حال ان يشير الى عدد من الحالات التي تشذ عن هذه القاعدة ، ومن المؤكد ان الترابط اقل قوة بالنسبة للانماط الحضارية منه بالنسبة للعادات . ويصح ان نزيد على ذلك انه بالنسبة للشعور الانفعالي الذي يجب ان لا نخلط بينه وبين الحضارة المستترة ، لا توجد على ما يظهر اي علاقة متبادلة بين درجة الشعور وتحديد النمط الحضاري . ولذا نرى ان لمعظم المجتمعات انماطاً شديدة التحديد لمواجهة الاعمال العدائية كالقتل والزنا . ومع ذلك فان الردود الانفعالية لافراد الجماعة على هذه الاعمال هي من اعنف الردود . ويبدو من المحتمل ان يكون لعامل التكرار دور يلعبه في هذا المجال . اذ اننا نلاحظ ان الوقائع النادرة ، حتى عندما تقترن بانماط حضارية شديدة التحديد ، تبدو اشد قدرة على اثارة الرد الانفعالي من الحوادث العامة .

وان معظم العلاقات المتبادلة التي اتينا على ذكرها بين محتوى الشخصية ومحتوى الحضارة ذو اهمية اكاديمية فحسب. اما العلاقات المهمة حقاً فهي التي تعكس تأثير الحضارة على نشوء الشخصية ولسوف نحاول معالجتها في الفصل القادم، والاخير من هذا الكتاب .





الفصل الخامس

دور الحضارة في تكوين الشخصية



دور الحضارة في تكوين الشخصية

من اكثر التطورات العلمية الحديثة اهمية ادراكنا للحضارة. ولقد قيل ان آخر شيء يحتمل ان يكتشفه من يسكن اعماق البحر هو الماء، وهو لا يشعر بوجوده الا اذا اصابه حادث فدفعه الى سطح الماء وعرضه للهواء. ولقد بقي الانسان خلال الجزء الاكبر من تاريخه يحس احساساً مبهماً بالحضارة، وهو مدين حتى بهذا الاحساس المبهم الى التباين بين عادات مجتمعه وعادات مجتمع آخر تعرف عليه دون قصد. فقدرة المرء على النظر الى حضارة مجتمعه بكاملها، وعلى تقييم انماطها وتقدير تفريعاتها يتطلب منه درجة من التجرد يندر ان يبلغها. وليس مجرد صدفة ان يكون تفهم العلماء المحدثين للحضارة قد نشأ الى حد كبير عن طريق دراسة الحضارات غير الاوروبية حيث يُستعان على التأكد من صحة مشاهداتنا بمقابلتها بغيرها، فالذين لا يعرفون اية حضارة سوى حضارتهم لا يفهمون حضارتهم ذاتها. فحتى علماء النفس لم يدركوا الا مؤخراً بان البشر – بما فيهم هم انفسهم – ينشأون ويعملون في بيئة تحدد الحضارة غالبية معالمها. وطالما انهم يقصرون ابحاثهم على افراد نشأوا ضمن اطار حضارة واحدة فان عليهم ان يصلوا الى مفاهيم للطبيعة البشرية تنأى كثيراً عن

الحقيقة . بل ان العالم الكبير فرويد كثيراً ما لجأ الى الغرائز لتفسير ردود فعل نعتبرها اليـــوم ثمرة للتكيف الحضاري . والآن وقـــد تجمعت لدينا معلومات كثيرة عن المجتمعات والحضارات الاخرى ، يمكننا ان نتصدى لدرس الشخصية بعدد اقل من الآراء المسبقة ، وان نقترب اكثر من الحقيقة .

وينبغي الاعتراف في الحال بان مشاهدة المعطيات عن الشخصية في المجتمعات غير الاوروبية وتسجيلها عملية تعترضها مصاعب جمة . ومن الصعب علينا ان نحصل ، في مجتمعنا ، على معطيات يمكن الاعتماد عليها . ولا تزال الاساليب الموضوعية المضبوطة لدراسة الشخصية في اولى مراحل تطورها على ان الوسائل كاختبارات رورشاخ (Rorschach) واختبارات موري (Murray) لادراك الموضوعات المصورة قد برهنت على اهميتها ولكن الذين استخدموها هم اول من ادرك ان فائدتها محدودة . وما زال علينا بسبب معرفتنا الراهنة ان نعتمد الى حد كبير على المشاهدات غير المنظمة وعلى احكام المشاهد الذاتية . ومما يزيد الامر تعقيداً ان معظم - لا كل - ما لدينا من معلومات عن الشخصية في المجتمعات غير الاوروبية قد قام بجمعه علماء الانسان الذين لم تكن لهم سوى معرفة عابرة بعلم النفس . وتعترض هؤلاء - بما فيهم انا نفسي يوم كنت اقوم بالجزء الاكبر من عمـــلي في ميدان علم السلالات - عقبة خطيرة ناجمة عن جهلهم بما يجب البحث عنه وبما يجب تسجيله . اضف الى ذلك ان هناك حاجة

ملحة الى مواد مقارنة عن مختلف المجتمعات غير الاوروبية التي تمت دراستها . فالسرعة التي تم فيها تحضير المجتمعات البدائية ، او التي تم فيها انقراضها ، خلال السنوات المئة الاخيرة قد ادت الى نشوء نمط خاص من ابحاث علم الانسان . ولما كان عدد المجتمعات يفوق دائماً عدد علماء الانسان المستعدين لدراستها، ولما كانت غالبية هذه المجتمعات تقتضي دراسة فورية قبل ان تضيع الفرصة الى الابد ، فقد بادر كل باحث الى دراسة جماعة جديدة غير معروفة . وعليه فان معظم معلوماتنا عن اي مجتمع قد جمعها باحث واحد . ونجمت عن هذا الوضع مضار وبخاصة فيما يتعلق بدراسات الشخصية . ففي حقل تعتمد فيه اكثر الامور على الاحكام الذاتية التي يطلقها الباحث على ابناء مجتمع انشأ معهم علاقات وثيقة، تصبح شخصية الباحث عاملاً له اثره في كل سجل يضعه . ونأمل ان يزداد عدد علماء الانسان وان يقل عدد المجتمعات التي لم تدرس بعد بحيث نتغلب على هذا الوضع ونقوي الدراسات التي تتناول الشخصية .

لكن على الرغم من هذا الاعتراف الصريح بالصعوبات والحدود التي لا يزيلها الا الزمن ، فان هناك حقائق يقبلها الجميع . فجميع علماء الانسان الذين عرفوا ابناء المجتمعات غير الاوروبية معرفة وثيقة يتفقون من حيث الجوهر على نقاط معينة وهي :

١ – تختلف معايير الشخصية باختلاف المجتمعات .

٢ – يبدي ابناء اي مجتمع من المجتمعات اختلافات فردية في الشخصية .

٣ – ان الكثير من اختلافات الشخصية وانواعها ذاتها موجودة في كل المجتمعات . وبالرغم من ان علماء الانسان يستخلصون استنتاجاتهم من مشاهدات غير منظمة فان نتائج بعض الاختبارات الموضوعية تؤيدها . ولذا فان مجموعة رورشاخ التي استخلصها من مجتمعات مختلفة تكشف معايير تختلف باختلاف تلك المجموعات . كما تكشف عن مجال واسع للاختلافات الفردية في كل مجموعة بحد ذاتها وعن كثير من التداخل فيما بينها . وحتى بدون هذه الادلة ، يظل اجماع اولئك الذين تفترض فيهم المعرفة امراً لا يمكن تجاهله . وطالما انه ليست لدينا معرفة ادق واكمل يحق لنا على ما يظهر قبول هذه الاستنتاجات واعتبارها حقائق ننطلق منها الى بحث دور الحضارة في تكوين الشخصية .

لا يكاد احد ممن اختبروا مجتمعات غير مجتمعهم يشك في ان معايير الشخصية تختلف باختلاف المجتمعات . والواقع ان الشخص العادي ينزع الى المبالغة في هذه الاختلافات اكثر مما ينزع الى التقليل منها . والسؤال الوحيد الذي تحتمل اثارته في هذا المقام هو ما اذا كان ينبغي ان يكون في اي مجتمع معيار واحد للشخصية او مجموعة من المعايير المختلفة يرتبط كل منها بفئة

من الفئات ذات المكانة الواحدة داخل المجتمع . وتزول كل صعوبة في التوفيق بين وجهتي النظر هاتين عندما ننظر اليهما وسط قراءتها . فنجد ان اعضاء اي مجتمع من المجتمعات يشتركون دائماً في قائمة طويلة من عناصر الشخصية . وقد تكون هذه العناصر على درجات مختلفة من التحديد تتراوح من الردود البسيطة الظاهرة كالتي نراها في «آداب المائدة» الى اتجاهات تعميمية الى حد كبير . وقد تكمن الردود من النوع الثاني وراء سلسلة طويلة من الردود الاكثر تحديداً عند الفرد . وكذلك الامر بالنسبة لنظم القيمة والموقف التي يشترك فيها اعضاء المجتمع ، فقد تنعكس هذه النظم في عدة اشكال مختلفة من السلوك الظاهر المرتبط بمكانة اجتماعية معينة . وعلى هذا فان النساء والرجال في مجتمع ما قد يشتركون في مواقف واحدة بالنسبة الى احتشام الانثى وجرأة الرجل بالرغم من ان السلوك المرتبط بهذه المواقف يختلف بالضرورة باختلاف الجنسين . فالمرأة تعبر عن الاحتشام بانماط خاصة من الالبسة والسلوك ، اما الرجل فيعبر عنه بردود تعميمية من الاستحسان او عدم الاستحسان بالنسبة لازياء خاصة او سلوك معين . وتؤلف كل هذه العناصر الشخصانية المشتركة شكلاً متكاملاً تمام التكامل يمكننا ان ندعوه : «نموذج الشخصية الاساسية» (Basic Personality Type) في المجتمع بكامله . ويمد هذا الشكل المتكامل اعضاء المجتمع بقيم ومفاهيم مشتركة ويؤدي الى اثارة رد انفعالي موحد فيهم تجاه حالات تمس قيمهم المشتركة.

كما اننا نلاحظ ان في كل مجتمع اشكالاً متكاملة اخرى من الردود المرتبطة بجماعات محددة على اساس اجتماعي داخل نطاق المجتمع . وعليه فاننا نجد اشكالاً متكاملة مختلفة من الردود منها ما هو خاص بالرجل وبالمرأة ، وبالمراهق وبالرجل البالغ وهكذا . ونلاحظ ان في المجتمعات الطبقية اختلافات مشابهة بين الردود التي يتميز بها الافراد من مختلف المستويات الاجتماعية ، كالنبلاء مثلاً ، والعامة والعبيد . ويمكننا تسمية هذه الاشكال المتكاملة من الردود المرتبطة بالمكانات الاجتماعية « شخصيات المكانة » (Status Personalities) . وهي ذات اهمية كبيرة جداً لنجاح المجتمع في تأدية وظيفته اذ انها تسهل لاعضائه التفاعل المثمر على اساس دليل المكانة وحده ، وهكذا نجد انه حتى في المعاملات بين الغرباء ، فان مجرد التعرف الى المكانة الاجتماعية التي ينتمي اليها الشخصان يجعل من الممكن لكل منهما ان يتنبأ بسلوك الآخر في معظم الحالات .

على ان شخصيات المكانة التي يعترف بها اي مجتمع من المجتمعات تضاف الى نموذج الشخصية الاساسية وتدمج به دمجاً كاملاً . ومع ذلك فهي تختلف عنه في انها مثقلة بالردود الظاهرة المحددة الى حد يشك معه المرء في امكان القول بان شخصيات المكانة تشتمل على اي نظام من نظم القيمة والموقف متميز عن تلك التي نجدها في الشخصية الاساسية . على انني اشعر انه يحق لنا ان نفرق بين **معرفة** (Knowledge) نظام معين من نظم

القيمة والموقف وبين **المشاركة** (Participation) في مثـــل هذا النظام . فشخصية المكانة يندر ان تشتمل على اي نظام من نظم القيمة والموقف لا يعرفه اعضاء الفئات الاخرى ، بالرغم من انها قد تفعل ذلك في اوضاع تشتد فيها الكراهية المتطرفة بين تلك الفئات . لكن شخصية المكانة من الناحية الاخرى قد تشتمل على نظم القيمة والموقف التي لا يشارك فيها اعضاء الفئات من اصحاب المكانات الاخرى . وهكذا نرى ان الاحرار قـد يعرفون ويجيزون مواقف العبيد بدون ان يشاركوهم فعلاً فيها . وعلى اي حال فان الردود الظاهرة المحددة هي التي تسبغ على شخصيات المكانة معظم اهميتها الاجتماعية. وما دام المرء ينشىء هذه الردود فباستطاعته ان يتصرف طبقاً لمكانته بنجاح، بغض النظر عما اذا كان يشارك في نظم القيمة والموقف المقترنة بها ام لا . وتدفعنا المشاهدات غير المنظمة الى الاعتقاد بان مثل هـذه الحالات كثيرة جداً في كل المجتمعات . فانماط الردود المحددة لشخصية المكانة تقدم الى الفرد في صيغ بسيطة ملموسة تيسر له تعلمها ، اذ يستمر الضغط الاجتماعي لاكتسابها وتعود ممارستها على الفرد بمكافأة المجتمع له ، ويعاقبه المجتمع على انحرافه عنها. بل ان الصراع الداخلي الذي قد ينشأ خلال اتخاذ نمط من الردود المحددة التي تختلف عن نظام من نظم القيمة والموقف عند الفرد لا يزعجه كثيراً، وبالرغم من ان الصراع قد يكون عنيفاً بادىء ذي بدء ، فانه يخف ثم يزول في النهاية عندما يصبح الرد تلقائياً ولاشعورياً .

ولكل مجتمع نموذج خاص للشخصية الاساسية ومجموعة خاصة من شخصيات المكانة تختلف من بعض النواحي عن مجموعات المجتمعات الاخرى. والمجتمعات كلها تقر هذه الحقيقة عملياً وبصورة ضمنية ولدى الكثير منها تفسيرات لها. فحتى وقت قريب جداً كان مجتمعنا يستند في تفسيراته الى عوامل بيولوجية. فكان ينظر الى الاختلافات بين نماذج الشخصية الاساسية على انها نتيجة ارتباط بين الجنس والشخصية. اما الفروق في مكانة الشخصية فكانت تعزى الى عوامل جنسية كما هي الحال في مكانتي الرجل والمرأة، او الى عوامل وراثية. على ان التفسير الثاني غير شائع بين الامريكيين لان نمطاً من انماطنا الحضارية يدعو الى تجاهل وجود شخصيات المكانة كلها ما عدا تلك المرتبطة بالجنس، لكنه، اي التفسير، جزء اصيل من الحضارة الاوروبية. والقصص الشعبية الموروثة من ازمنة المجتمعات ذات التنظيم الطبقي الدقيق مليئة بالحوادث التي يلتقي فيها طفل نبيل المحتد قد تربى في كنف عائلة فقيرة من عامة الناس، اهله الحقيقيين الاصليين فاذا بهم **يميزونه على الفور** بسبب نبالة شخصيته. ثم ان هذه التفسيرات البيولوجية امثلة حسنة على ذلك النوع من **المعرفة** الذي ينتقل بواسطة الحضارة والذي تحدثنا عنه في الفصل السابق. ولقد تناقل الناس في مجتمعنا هذه التفسيرات طيلة اجيال ولم يجازف احد، الا مؤخراً، في اخضاعها لاختبارات البحث العلمي، والواقع ان بحثاً من هذا النوع لا بد وان يعالج ثلاث مشكلات مختلفة :

١ – الى اي حد تتحدد الشخصية بفعل العوامل الفيسيولوجية ؟

٢ – الى اي حد نجد هذه العوامل الفيسيولوجية المحددة للشخصية وراثية ؟

٣ – الى اي درجة يحتمل ان تنتشر هذه العوامل المحددة في مجتمع ما بحيث تؤثر في نموذج الشخصية الاساسية او في شخصيات المكانة في المجتمعات الطبقية .

لقد رأينا آنفاً ان الشخصية في اساسها شكل متكامل من الردود انشأها الفرد نتيجة لخبرته ، وهذه الخبرة بدورها تحصل نتيجة لتفاعله المتبادل مع بيئته . وتؤثر صفات الفرد الفطرية تأثيراً قوياً في نوع الخبرة الحاصلة من ذلك التفاعل ، وهكذا فان حالة خاصة من احوال البيئة قد تمد الطفل القوي بخبرة تختلف تماماً عن الخبرة التي تمد بها الطفل الضعيف . ثم ان هنالك عدداً كبيراً من الحالات التي تولد نوعاً من الخبرة عند الطفل الذكي يختلف عن النوع الذي تولده عند الطفل الغبي . ومع ذلك فمن الواضح ايضاً ان طفلين على مستوى واحد من الذكاء او القوة يحصلان على خبرات مختلفة من حالات مختلفة . فاذا كان احدهما اذكى فرد في عائلته والثاني اقل افراد عائلته ذكاء ، فان خبرة الواحد تختلف كثيراً عن خبرة الآخر ، ويختلف بالتالي الشكل المتكامل للردود عند احدهما عنه عند

الآخر ، وبعبارة اخرى وبالرغم من ان صفـات الفرد الفطرية تؤثر تأثيراً قوياً في تطور شخصيته ، فان نوع التأثير يتكيف الى حد كبير بفعل عوامل البيئة . وكل ما نعرفه حالياً عن عمليات تكوين الشخصية يشير الى ضرورة احلال صيغة « الطبيعة مع او بدون التربية » محل « الطبيعة ضد التربية » . ويبدو ان هنالك ادلة وافرة على اننا لا نستطيع اعتبار القدرات الفطرية ولا البيئة العامل الغالب دائماً في تكوين الشخصية . زد على ذلك انه يبدو ان مركبات مختلفة من القدرات والبيئة قد تؤدي الى نتائج شديدة التشابه فيما يتعلق بنشوء الشخصية . وعلى هذا فان اي مركب من العوامل الفطرية وعوامل البيئة يضع الفرد في مركز رفيع ثابت يولد مواقف اساسية معينة ، اما المركب الذي يضعه في مركز ثانوي قلق فانه يولد مواقف اخرى .

ويبـــدو اننا نستطيع باطمئنان الاستنتاج بانه لا يمكننا استخدام العوامل الفطرية المقررة بيولوجياً لتعليــل الاشكال المتكاملة للشخصية ولا لمختلف انماط الردود التي تشتمل عليها هذه الاشكال . فان هذه العوامل تعمل بوصفها مجرد واحدة من مجموعات العوامل التي تكون هذه الاشكال . وعلى كل حال فان الشكل المتكامـــل للشخصية يتألف من انماط من الردود وغيرها . فهو يشتمل على خصائص معينة من التنظيم الشامل يشار اليها في شيء من الغموض بمزاج الفرد . وتعني التعريفات السائدة لهذا الاصطلاح ان هذه الخصائص فطرية ومحـــددة

فيسيولوجياً ، بيد ان مدى صحة هذا غير معروف . ولا نعرف مثلاً ما اذا كانت خاصة القلق العصبي هي فطرية حقاً ام نتيجة لتأثيرات البيئة او انها ، كما يبدو محتملاً ، نتيجة التفاعل المتبادل بين العوامل الفطرية وعوامل البيئة . والى ان نجد جواباً لهذه المسألة ، يبدو من الاوفق لنا ان نخرج موضوع المزاج من هذا البحث في حين اننا ندرك ان اغفاله هذا لا بد وان يجعل استنتاجاتنا ناقصة .

ويضم كل شكل متكامل للشخصية الى جانب انماط الردود « والمزاج » القدرة على القيام بمختلف العمليات النفسية . قد يكون من الاسلم لنا ان نتحدث عن القدرات (Abilities) لا لان هناك شواهد وافرة على ان السهولة التي يؤدي بها شخص ما عمليات مختلفة تختلف اختلافاً بيّناً من عملية الى اخرى . وعليه فان الذكاء الضعيف قد يقترن بقدرة خارقة على الخاصة بالرغم من انها تبدو وكأنها في الاساس فروق في الدرجة لا في النوع . وهكذا فان كل الافراد يقدرون على الاخذ بقسط من التعلم وعلى التفكير ولكن سهولة اداء هذه العمليات تختلف كثيراً عند الواحد عنها عند الآخر . وفي حين ان هذه السهولة تزداد يسراً بالممارسة والتدريب ، الا ان الفروق الملحوظة تبدو كبيرة الى درجة لا نستطيع تعليلها على هذا الاساس وحده وعلى هذا فيصح لنا ان نشك فيما اذا كان حظ الفرد العادي من التدريب مهما طال يمكّنه من حفظ الكتاب المقدس بكامله او

بمنافسة اللامعين في حساب الارقام. وبالتالي نضطر الى الاستنتاج بان هنالك عوامل فطرية معينة تقرر الحد الاعلى لما يمكن ان يبلغه تطور القدرات النفسانية الخاصة ، وان هذه العوامل تختلف عند فرد عنها عند آخر . ويصح لنا ايضاً ان نفترض بان لمثل هذه العوامل اساساً فيسيولوجياً ما رغم اننا ما زلنا نفتقر الى فكرة واضحة عما قد يكون عليه هذا الاساس .

وباختصار يبدو انه لا يمكن اعتبار العوامل الفيسيولوجية مسئولة عن انماط الردود المقررة التي تؤلف الجزء الاكبر من الشخصية ، الا انه يمكن اعتبارها مسئولة عن قدرات الفرد النفسانية . وبهذا نصل الى المشكلة الثانية وهي : « الى اي حد نستطيع اعتبار هذه العوامل الفيسيولوجية المتحكمة وراثية ؟ » لا نستطيع لسوء الحظ حل هذه المشكلة على اساس معرفتنا واساليبنا الحالية. فلا توجد طريقة نستطيع بها ان نحلل قدرات الفرد النفسانية وهي على حالها الاصلية . وكل ما نستطيع عمله هو ان نحكم عليها من نواحيها هذه التي تتأثر دائماً بالخبرة الماضية . ويتبين هذا بجلاء من النتائج غير المرضية التي نحصل عليها حتى من تطبيق افضل اختبارات الذكاء ، على جماعات لها اصول حضارية مختلفة. وعليه فمن المستحيل اذن تعيين القدرات الفطرية للافراد على النحو المطلوب لاجراء دراسة وراثية حقيقية . فلا سبيل الى وقوفنا على مدى ما يعود من مستوى الذكاء الظاهر في اي فرد من الافراد الى الوراثة ومدى ما يعود منه الى الفرص .

فاذا سلمنا ان للقدرات النفسانية اساساً فيسيولوجياً، فمن المحتمل جداً ، على ما يبدو، ان يتأثر بعض هذه العوامل الفيسيولوجية، على الاقل ، بالوراثة . وفي الوقت نفسه ، يبدو ان ما لدينا من شواهد على وجود مستويات مختلفة من القدرات النفسية يشير الى انها ليست موروثة مباشرة اذ لا يمكن التنبؤ بظهورها عند افراد لهم حظ معلوم من الوراثة بالوسائل الحسابية البسيطة ذاتها التي نتنبأ بها عن لون العيون مثلاً . وبالنظر الى التدرج الذي لا حصر له في هذه القدرات الفردية ، فانه لمما يبعث على الدهشة ان تكون موروثة مباشرة . ويبدو ان التفسير الراجح هو ان العوامل الفيسيولوجية المسئولة عن مستوى او درجة معينة من القدرة تنبثق عن بعض مركبات معقدة جداً من الجينات وان هذه المركبات لا تتحرك على شكل وحدات مستقلة .

وحتى لو صح هذا التفسير فانه لا يمنع امكان تأثر نموذج الشخصية الاساسية في مجتمع من المجتمعات في حالات معينة بعوامل الوراثة . فأفراد اي مجتمع من المجتمعات ينزعون عادة الى التزاوج فيما بينهم . فاذا استطاع المجتمع المحافظة على انعزاله مدة كافية من الزمن جاء ما يرثه افراده متشابهاً الى حد كبير . ويعتمد طول الوقت اللازم لبلوغ ذلك على حجم الجماعة الاصلية التي تحدر منها افراد المجتمع وعلى تجانس اسلاف تلك الجماعة، فكلما ازدادت الجماعة الاصلية وتنوعت اصولها طال الزمن

الضروري لتوريث ابنائها خصائص متجانسة . وعندما تكون الجينات اللازمة لانتاج مركب خاص متوفرة في معظم افراد المجتمع ، تزداد فرص ظهور هذه المركبات في الذرية زيادة كبيرة . وعليه فهناك احتمال قوي بأن تظهر في جماعة صغيرة من السكان طالت عزلتها، نسبة كبيرة من الافراد على مستوى معين من القدرة النفسانية . وحتى في اقرب المجتمعات تزاوجاً يظل هنالك دائماً مجال للتنوع الفردي ، واسع الى حد ان اكثر الاعضاء بلاهة في جماعة تتصف بالذكاء قد يكون اكبر بلاهة من اكثر الاعضاء ذكاء في جماعة تتميز بالبلاهة . وعلى كل حال فان نموذج الشخصية الاساسية في اي مجتمع يعتمد على العاديين من الافراد ، الذين يختلفون باختلاف المجتمع نتيجة للعوامل الوراثية . لكن يحتمل للاسباب التي ذكرناها ان تظهر امثال هذه الفروق الوراثية في القدرات النفسية في مجتمعات صغيرة « بدائية » من النوع الذي يوليه علماء الانسان اكبر اهتمامهم .

وقد يبدو البحث المتقدم في امكان ظهور الفروق الوراثية في المعايير النفسانية لدى مختلف المجتمعات مفصلاً اكثر مما يجب ، الا ان هناك اختلافاً حول هذه النقطة حتى بين علماء الانسان . فجماعة منهم ترى من المسلم به ان تقوم فروق صارخة في القدرات الموروثة في معظم المجتمعات في حين ان الباقين ينكرون تماماً اي امكان لظهورها . ويبدو ان اياً من الفريقين لم يقم بدراسة موقفه على ضوء المعرفة الحديثة في امور التناسل . ويكاد يكون

مؤكداً ان الحقيقة تقع بين هذين الرأيين المتطرفين . فمن المرجح ان المجتمعات الصغيرة التي طالت عزلتها تختلف حقاً في امكاناتها النفسانية الموروثة ، في حين ان افراد معظم المجتمعات الكبرى، وكل المجتمعات المتمدنة في الحقيقة يتباين ما يرثونه الى حد لا يقوى معه على الصمود اي تفسير فيسيولوجي للفروق الملحوظة في معايير الشخصية في تلك المجتمعات . فالفروق الوراثية بين الفرنسيين والالمان مثلاً اصغر من الفروق في معاييرهم الشخصية الى حد يصبح معه من السخرية ان نحاول تفسير الفروق الثانية على اساس وراثي . وقد تعين على اشد الالمان ايماناً بعنصريتهم ان يدخلوا مفهوماً صوفياً فحواه ان الروح النوردية (Nordic) تستطيع التقمص في رجل الالب او حوض البحر المتوسط وذلك لدعم مفهوماتهم للتفوق العنصري .

وكان علماء النفس الامريكيون وعلى رأسهم المرحوم الدكتور بواس (Boas) من اوائل الذين ادركوا قصور العوامل الفيسيولوجية الموروثة عن تفسير اختلاف معايير الشخصية في مختلف المجتمعات. ولسوء الحظ انهم نسوا بسبب من حماستهم لمناهضة مبدأ عدم المساواة العنصرية وللتأكيد على الوحدة الاساسية للنوع البشري نقطة مهمة ، وهي اننا اذا تجاوزنا جمع الوقائع وجدنا ان عمليات التقدم العلمي هي في الاساس، عمليات استبدال (Substitution). وعندما تجرد المعرفة المتراكمة احد التفسيرات لظاهرة معينة من اسباب صحته ، يتعين ظهور تفسير جديد افضل منه . ولا يكفي

مجرد الاشارة الى خطأ التفسير الذي كان مقبولاً . ومن الحقائق المسلم بها ان معايير الشخصية تختلف باختلاف المجتمعات . فبدلاً من قبول ذلك بصراحة والعمل على تعليله اكتفى بعض علماء الانسان بمحاولة التقليل من مدى هذه الفروق ومن اهميتها . وساقوا الشواهد على ان الفروق التي يقبلون الاعتراف بها لا يمكن ان ترد الى عوامل عنصرية ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً كثيراً في سبيل استحداث تفسير اصلح . والاعتقاد بان الاختلافات في معايير الشخصية لمختلف المجتمعات تعود الى عوامل وراثية فطرية اعتقاد له جذور عميقة في عقول عامة الناس، ولا يمكن استئصاله من عقولهم الا اذا استطاع العلم تقديم تفسير افضل . فالاعتقاد بان للجماعات البشرية امكانات نفسانية واحدة دون ان نحاول تقديم اي تعليل للاختلافات البينة في السلوك الظاهر ، وحتى في نظم القيمة والموقف ، يستلزم درجة من الايمان بسلطة العلم لا يقوى على بلوغها سوى قلة من الافراد . بل ان العبارات العامة التي تذهب الى ان الفروق الملحوظة تنجم من العوامل الحضارية ستبقى غير مقنعة طالما انها لا تقترن بتفسيرات لطبيعة هذه العوامل وكيفية عملها .

ولا بد وان يكون هذا البحث في الدور الذي يمكن لعوامل الوراثة ان تلعبه في تقرير معايير الشخصية لمختلف المجتمعات قد اوضح ان هذه العوامل لا تصلح قط لتفسير الكثير من الفروق الملحوظة . ولا نجد بديلاً لذلك الا ان نفترض ان مرد مثل هذه

الفروق هو الى البيئات الخاصة التي ينشأ فيها افراد مختلف المجتمعات . وكما اشرنا آنفاً فان عوامل البيئة التي تبدو في غاية الاهمية بالنسبة لتكوين الشخصية، هي الناس والاشياء . فسلوك افراد مجتمع ما، واشكال اكثر الاشياء التي يستعملونها امور ثابتة (Stereotyped) في الاكثر ويمكن وصفها على ضوء الانماط الحضارية . فعندما نقول ان الحضارة تكون شخصية الفرد ابان نشأتها فالذي نعنيه فعلاً هو ان تجارب الفرد التي يستمدها من اتصاله بتلك الاشياء الثابتة هي التي تكوّن الشخصية . ولا يكاد احد ممن وقفوا على الشواهد يشك في انها تتكون نتيجة لذلك الاتصال، لكن يبدو ان ما كتب في هذا الموضوع قد اغفل الى درجة كبيرة ناحية مهمة من عملية التكوين .

اما تأثيرات الحضارة في الشخصية الناشئة فعلى نوعين مختلفين: هناك التأثيرات المستمدة من سلوك الآخرين ذي النمط الحضاري تجاه الطفل ، وتبدأ هذه التأثيرات عملها منذ الولادة ، وتبدو اهميتها البالغة خلال فترة الرضاعة . وهناك ايضاً التأثيرات المستمدة من ملاحظة الفرد او تعلمه لانماط السلوك المميزة لمجتمعه. والكثير من هذه الانماط لا يؤثر عليه مباشرةً ولكنها تزوده بنماذج يحتذيها في انشاء ردوده الاعتيادية الخاصة على مختلف الحالات . ولا اهمية لهذه التأثيرات في مرحلة الرضاعة الباكرة ولكنها تستمر في التأثير فيه طيلة حياته . ولقد ادى اخفاقنا في

التمييز بين هذين النوعين من التأثير الحضاري الى كثير من الاضطراب .

ولا بد من الاعتراف على الفور بان كلا النوعين من التأثيرات يتداخل عند بعض النقاط . فقد يتخذ الطفل من السلوك ذي النمط الحضاري الموجه اليه مثالاً يحتذيه في تنمية بعض انماطه السلوكية الخاصة . ويبدأ هذا العامل نشاطه حالما يصبح الطفل قادراً على ملاحظة ما يفعله الآخرون وتذكره . وعندما يكبر ويواجه مشكلات لا حصر لها في تربية اطفاله يسترشد بذكريات الطفولة . ولهذا نجد في اي جماعة امريكية آباء يرسلون اولادهم الى مدرسة الاحد لانه سبق لهم ان أُرسلوا هم اليها . ولا يضعف من هذا النمط تفضيلهم وهم كبار لعبة الجولف على الذهاب الى الكنيسة . وعلى كل حال فان هذه الناحية من نمط تربية الاطفال في اي مجتمع كانت ثانوية بالنسبة للتأثير الذي تحدثه مثل هذه الانماط في تكوين الشخصية . واقصى ما يترتب على هذه الانماط ان ينشأ الاطفال الذين يولدون في مجتمع معين على نحو واحد تقريباً جيلاً بعد جيل . اما الاهمية الحقيقية لهذه الانماط في العناية الباكرة بالطفل وفي تدريبه فتكمن في تأثيراتها على المستويات العميقة من شخصيات الافراد الذين تربوا بموجبها .

ومما هو مقبول بوجه عام ان بضع السنوات الاولى من حياة الفرد سنوات حاسمة بالنسبة الى تأسيس نظم القيمة والموقف

التعميمية التي تؤلف المستويات العميقة من محتوى الشخصية . وجاء ادراك هذه الحقيقة لاول مرة في اعقاب دراسة الافراد الشواذ في مجتمعنا واكتشاف ان بعض خصائصهم كانت في الظاهر تقترن باستمرار ببعض انواع الخبرات الشاذة في عهد الطفولة . ولم يترتب على امتداد دراسات الشخصية الى مجتمعات اخرى حيث تختلف الانماط الطبيعية في تربية الاطفال والاطارات الطبيعية للشخصية عند المكتملين عما هي عليه عندنا الا التأكيد على اهمية التكيف منذ البداية . وهناك كثير من المظاهر « الطبيعية » للشخصيات الاوروبية كانت ترد الى عوامل غريزية واصبحت اليوم تعتبر ثمرة لانماطنا الخاصة في العناية بالاطفال . وبالرغم من ان دراسة العلاقات بين اساليب تربية الاطفال في مختلف المجتمعات ، ودراسة نمـــاذج الشخصية الاساسية عند الكبار لم تكد تبدأ بعد، الا اننا بلغنا حتى الآن نقطة يبدو من الممكن عندها الوقوف على بعض العلاقات المتبادلة بينهما، وبما ان ايراد كل هذه العلاقات امر مستحيل في بحث مقتضب كهذا، فسنكتفي ببعض الامثلة للايضاح .

في المجتمعات التي يشترط فيها النمط الحضاري طاعة الطفل التامة لوالديه لمكافأته على اي نحو، ينزع الرجل الطبيعي الى ان يصبح فرداً خانعاً اتكالياً تنقصه المبادرة والاقدام وحتى لو انه نسي تجارب الطفولة التي ادت الى نشوء هذه المواقف فان اول رد فعل يصدر عنه تجاه اي وضع جديد هو البحث عن شخص

ذي سلطة يرشده . وجدير بالذكر في هذا المقام ان هنالك عدداً كبيراً من المجتمعات تتبع في تربية الاطفال انماطاً ناجحة في انتاج شخصيات من هذا النوع الى حد انشئت معه اساليب خاصة لتدريب قلة من الافراد على القيادة . ولهذا فان « التنالا » (Tanala) في مدغشقر يولون الابن الاكبر منذ ولادته عناية خاصة تستهدف تنشئته على الاقدام والرغبة في تحمل المسئوليات في حين انهم يتشددون باستمرار مع باقي الاطفال . ثم ان الافراد الذين يعيشون في عائلات صغيرة جداً كالتي نعيش فيها، يميلون الى تركيز انفعالاتهم وترقبهم للثناء او العقاب في بضعة افراد آخرين . وهم بذلك يعودون لاشعورياً الى الطفولة حين كان آباؤهم مصدر فرحهم وخيبة املهم . اما في المجتمعات التي يعيش فيها الطفل في عائلات في محيط عائلي واسع ومن حوله عدد كبير من الكبار الذين يستطيعون مكافأته ومعاقبته فان الشخصية الطبيعية تنزع فيها الى اتخاذ وجهة معاكسة في اتجاه معاكس. فالفرد العادي في مثل هذه المجتمعات يعجز عن انشاء روابط قوية دائمة من الصداقة او الكراهية مع اشخاص معينين. فجميع التفاعلات الشخصية تنطوي على موقف لاشعوري هو : « حسناً، سأجد في الحال شخصاً آخر » . من الصعب ان نتصور مجتمعاً كهذا تشتمل حضارته على انماط مثل مفاهيمنا للحب الرومانطيقي (Romantic love) او لضرورة الحصول باي ثمن على الشريك الوحيد الذي تصبح الحياة بدونه بلا معنى .

ولا نهاية لمثل هذه الامثلة، ولكن ما سبق وذكرناه يكفي لتوضيح العلاقات المتبادلة التي اخذت تتمخض عنها دراسات الشخصية والحضارة . وتعكس هذه العلاقات ترابطاً من نوع بسيط واضح، وقد صار من الواضح ان مثل هذه العلاقات المباشرة بين السبب والنتيجة قليل . ففي معظم الاحيان نواجه اشكالاً متكاملة معقدة من انماط تدريب الاطفال تؤدي بمجموعها الى ظهور اشكال للشخصية متكاملة معقدة لدى الرجل . ومع ذلك لا يشك المطلع على النتائج التي بين ايدينا في ان هذا هو سر غالبية الاختلافات في نموذج الشخصية الاساسية التي كنا الى الآن نردها الى عوامل الوراثة . ويدين الاعضاء « الطبيعيون » في مختلف المجتمعات بالاشكال المتكاملة المتنوعة لشخصياتهم لتربيتهم وحضارتهم اكثر مما يدينون بها للجينات .

وبينما تحدد حضارة اي مجتمع اعمق المستويات في شخصيات افراده بطريق الاساليب الخاصة في تربية الاطفال التي تخضعهم لها، فان تأثيرها لا ينتهي عند هذا الحد . بل يتعداه الى بناء ما تبقى من شخصياتهم بتزويدهم بنماذج لردود الفعل المحددة كذلك. وتستمر هذه العملية الاخيرة طيلة الحياة . ويتعين على الفرد خلال فترة نضوجه وتقدمه في السن ان يتخلى باستمرار عن انماط الردود التي تفقد اثرها، وان يكتسب ردوداً جديدة اكثر ملاءمة لمركزه في المجتمع . وتقوم الحضارة بدور المرشد في كل خطوة من هذه العملية . فهي لا تقتصر على تزويده بنماذج

لادواره المتغيرة فحسب بل وتكفل ان تأتي هذه الادوار ملائمة بوجه عام لنظم القيمة والموقف الراسخة في اعماق نفسه . تنزع كل الانماط التي تشتمل عليها حضارة واحدة الى نوع من التناسق النفساني مستقل كلياً عن العلاقات الوظيفية المتبادلة بينها . وباستثناء بعض الحالات نجد ان الفرد الذي يحتذي تلك الانماط لن يلزم بالقيام بعمل لا يتفق مع المستويات العميقة من بنية شخصيته . وحتى حين ينقل مجتمع ما انماطاً سلوكية من مجتمع آخر فان هذه الانماط تتعدل وتتبدل حتى تصبح متجانسة مع نموذج الشخصية الاساسية لذلك المجتمع . ولقد تفرض الحضارة على الفرد الشاذ ان يلتزم ضروباً من السلوك تعافها نفسه، ولكن عندما ينفر اكثر افراد المجتمع من ضروب السلوك هذه يتعين على الحضارة ان تتراجع .

وعندما نتحول الى الجهة الاخرى من الصورة نجد ان اكتساب انماط السلوك الجديدة التي تتناسب مع نظم القيمة والموقف التعميمية عند الفرد ينزع على مر الزمن الى تقوية هذه النظم وترسيخها . فالفرد الذي يمضي حياته في اي مجتمع ذي حضارة ثابتة يقوى اندماج شخصيته وتكاملها كلما تقدم بـه العمر فتزول الشكوك والتساؤلات التي كانت تساوره خلال المراهقة بشأن المواقف الكامنة في حضارته، ويؤكد على قبوله لها بالتزامه السلوك الظاهر الذي تفرضه حضارته . ويأتي وقت يصبح فيه دعامة في مجتمعه، لا يستطيع ان يفهم كيف يتأتى

لاي انسان ان يساوره مثل تلك الشكوك . وقد لا تؤدي هذه العملية الى التقدم ولكن لا ريب في انها تولد الطمأنينة . ونجد مثل هذا الشخص اسعد بكثير من ذاك الذي يجد نفسه مجبراً على التزام انماط من السلوك الظاهر لا تتلاءم مع نظم القيمة والموقف المستمدة من تجاربه السابقة . ويمكن مشاهدة آثار عدم التلاؤم في عدد كبير من الافراد اضطروا الى التكيف مع اوضاع حضارية سريعة التغير من النوع الذي نراه اليوم . بل ان هذه الآثار اكثر وضوحاً في اولئك الذين يحاولون التكيف مع حضارة جديدة بعد ان نشأوا في غيرها . وهؤلاء هم « رجال التخوم » الذين يدرك محنتهم جميع الذين عالجوا ظاهرة التحضير (Acculturation) . فبما انهم يفتقرون الى التشجيع الذي يستمده المرء عندما يعبر عن نفسه في سلوكه الظاهر فان نظم القيمة والموقف التي تولدت فيهم منذ عهد مبكر تصبح ضعيفة مطمورة . ويبدو في الوقت ذاته انها نادراً ما تزول، او تستبدل بنظم جديدة متلائمة مع المحيط الحضاري الذي يعيش فيه . فالفرد الذي يكتسب حضارة جديدة يستطيع ان يتعلم كيف يتصرف، بل وكيف يفكر طبقاً لها ولكنها لا تقوى على اثارة مشاعره . ولهذا يجد نفسه عند كل نقطة تستوجب البت في امر من الامور تائهاً بلا قاعدة يستند اليها .

وباختصار، يمكن تفسير حقيقة ان معايير الشخصية تختلف باختلاف المجتمعات، على اساس اختلاف الخبرة التي يستمدها

افراد هذه المجتمعات من اتصالهم بحضاراتهم، اما في المجتمعات الصغيرة القليلة التي ورث اعضاؤها اموراً متجانسة، فان تأثير العوامل الفيسيولوجية في تقرير الامكانات النفسية عند اكثرية الاعضاء امر لا نستطيع استثناءه، الا ان مثل هذه الحالات قليلة ولا شك . وحتى حين تتوفر العوامل الوراثية المشتركة فانها لا تؤثر الا في امكانات الفرد على الرد . ولكنها بحد ذاتها لا تكفي لتعليل اختلاف المحتوى والنظم في نماذج الشخصية الاساسية عند مختلف المجتمعات .

لقد ذكرت في اوائل هذا الفصل ثلاثة استنتاجات توصل اليها علماء الانسان نتيجة لدراساتهم في الشخصية في عدد كبير من المجتمعات والحضارات . واول هذه الاستنتاجات هو ان معايير الشخصية تختلف باختلاف المجتمعات . لكن لا يزال من الضروري ان نفسر لماذا يتجلى دائماً تنوع فردي كبير في الشخصية عند افراد اي مجتمع، ولماذا نكاد نجد مدى التنوع ذاته ونماذج الشخصية ذاتها في كل المجتمعات . ولا تنطوي المشكلة الاولى من هاتين المشكلتين الا على قليل من المصاعب . فليس ثمة اثنان ولا حتى توأمان متماثلان تماماً . فمهما كان تزاوج افراد المجتمع محصوراً بينهم فانهم يختلفون في امكانات النمو والتطور التي تحددها الوراثة لهم . اضف الى ذلك ان تحقيق هذه الامكانات يتأثر بجميع عوامل البيئة . ومنذ اللحظة التي يولد فيها الافراد يختلفون حجماً وقوة . وبعد ذلك بقليل يتجلى اختلافهم في

الذكاء وفي القدرة على التعلم . ولقد قلنا آنفاً انه يبدو ان عملية تكوّن الشخصية هي في الاساس عملية دمج للتجربة . والتجربة بدورها تحصل من تفاعل الفرد وبيئته، وعليه نجد انه حتى البيئات المتماثلة تماماً — هذا اذا تصورنا وجودها — تنجب افراداً مختلفين لهم تجارب مختلفة وتؤدي في النهاية الى نشوء شخصيات مختلفة .

والواقع ان القضية اكثر تعقيداً من ذلك . فحتى اكثر المجتمعات والحضارات تكاملاً تزود الافراد الذين ينشأون فيها ببيئات شديدة الاختلاف . فالحضارة تتجلى للفرد من خلال سلوك الآخرين وتصرفاتهم، وباتصاله بالاشياء التي يصنعها عادة اعضاء المجتمع ويستعملونها . وقد تكون هذه الناحية الاخيرة من البيئة الحضارية ذات نسق واحد في بعض المجتمعات البسيطة حيث يحول اجتماع الفقر العام وانماط المشاركة دون نشوء تفاوت صارخ في مستويات المعيشة، لكن لا ريب في ان مثل هذه المجتمعات قليلة . ففي غالبية المجتمعات تختلف محتويات البيوت وعدتها وعليه فانها تخلق للفرد بيئات مادية مختلفة بعض الشيء . على اننا لا نعلم مدى اهمية مثل هذا الاختلاف في تكوين الشخصية . وتشير الدلائل كلها الى انه ذو اهمية ثانوية لان تأثير الناس على الفرد الناشىء اكبر بكثير من تأثير الاشياء المادية، ونخص بالذكر الاتصال الوثيق المستمر بين الطفل واعضاء عائلته سواء الابوان او الاشقاء، وذلك لانه عامل حاسم في تحديد

نظم القيمة والموقف التعميمية . ولا حاجة الى القول بان الخبرة التي قد يكتسبها من مثل هذه الاتصالات لا تقل تنوعاً عن الافراد انفسهم، وحتى اكثر الانماط الحضارية جموداً وتحجراً تترك مجالاً محدوداً للسلوك الفردي، في حين انه لا يمكن لانماط العلاقات العائلية المتبادلة ان تكون في الواقع شديدة الجمود . ولقد قال اخذهم : « لا شيء يستمر كالزواج » ويصدق القول ذاته على العلاقات بين الآباء والابناء. فالتفاعل الشخصي المتكرر يؤدي الى تنمية انماط فردية للسلوك لا يحد من تنوعها الا الخوف مما قد يقوله الجيران . وحتى عندما يكون السلوك ضمن الحدود التي تفرضها الحضارة فمن الممكن للآباء في اي مجتمع من المجتمعات ان يعطفوا او ان يهملوا، وان يتشددوا او ان يتسامحوا فيساعدون الطفل ويشعرونه بالطمأنينة خلال اتصاله بالغرباء او يخلقون له اخطاراً اضافية في عالم عدائي على وجه العموم . ويمكن للاختلافات بين الافراد وبين البيئات ان تدخل في عدد لا حصر له من المركبات والبدائل، ولا تقل الخبرة التي يحصل عليها مختلف الافراد عنها في تنوعها واختلافها . وتكفي هذه الحقيقة لتعليل ما في محتويات الشخصية من اختلافات نلاحظها بين افراد اي مجتمع من المجتمعات .

أما لماذا يبدو لنا ان مجـــال التنوع ذاته تقريباً ، وكذلك نماذج الشخصية عينها ، موجودة في كل المجتمعات فمشكلة اكثر تعقيداً وصعوبة . فعلماء الانسان انفسهم اقل اتفاقاً على هـــذه

الامور منهم على الامور السابقة . فغالبية علماء الانسان الذين سبق لهم فاتصلوا اتصالاً وثيقاً بعدد من المجتمعات المختلفة يعتقدون بان الامر كذلك ولكن لا بد وان يتأخر ظهور الدليل القاطع لتأييده او نفيه الى انشاء اساليب افضل لتشخيص الشخصية . ويجب ان ندرك كذلك انه عندما يقول علماء الانسان ان نماذج الشخصية ذاتها تقريباً توجد على ما يظهر في كل المجتمعات بالرغم من التفاوت في تكرارها فانهم يستعملون اصطلاح « الشخصية » بمعنى خاص . فان غالبية الردود المحددة في الافراد تأتي دائماً ضمن الحدود التي ترسمها الحضارة ، ونجاوز الحد كثيراً اذا توقعنا وجودها ذاتها في افراد مختلف المجتمعات . والذي يعنيه عالم الانسان هو انه عندما يألف المرء الحضارة الغريبة والافراد الذين يشتركون فيها يجد ان هؤلاء الافراد هم في الاساس نفس الاشخاص الذين عرفهم في مجتمعه ، فبينما تختلف ردودهم ذات الانماط التي بنيت على حضارتهم فان قدراتهم ونظم القيمة والموقف الاساسية عندهم تتشابه كثيراً . ولا تتطلب هذه المقابلة اي تصنيف متقن للشخصيات باللغة الفنية ، بل تتطلب معرفة وثيقة بالافراد والحضارات المعنية وينبغي للمرء ان يألف الى حد بعيد حضارة جماعة اخرى قبل ان تتضح له الاختلافات بين معايير السلوك الفردية والمعايير الحضارية وضوحاً كافياً تصبح معه مقياساً يحكم به على المستويات العميقة من شخصيات الافراد.

وليس من الصعب تفسير التشابه بين مستويات القدرة عند

افراد المجتمعات المختلفة . فان جميع الناس افراد نوع واحد ، ومجال التنوع الممكن لتلك المستويات يـــكاد يكون ذاته في كل المجتمعات . على ان تعليل التشابه في نظم القيمة والموقف عند الافراد الذين ينشأون في بيئات حضارية مختلفة اصعب من ذلك، ولكن لا شك في انه موجود . ولعل اكثر التفسيرات احتمالاً على ضوء ما لدينا من معرفة في الوقت الحاضر هي انهـــا تنجم في الاساس من تأثـــير الاوضاع العائلية المتشابهة في افراد ذوي مستويات متشابهة من القدرة . ولقد اشرنا سابقاً الى ان الانماط الحضارية للتفاعل بين افراد العائلة تسمح دائماً بظهور مجال كبير من التباين الفردي . وفي كل المجتمعات تنزع الشخصيات في الاوضاع العائلية الى ترتيب نفسها في مراكز السيادة على نفس النحو الى حد كبير ، وتنزع الى انشاء انماط واحدة للتفاعـــل العادي الخاص . وهكذا فاننا نجد حتى في اكثر المجتمعات التزاماً بالسلطة الابوية ، عدداً كبيراً من العائلات التي تسيطر فيها الزوجة والام . وقد تتظاهر هذه باحـــترام زوجها في المجتمع، ولكن الزوج والاولاد يعرفون من هو صاحب السلطة الفعلية . وهناك حالات كيفتها العوامل البيولوجية تتكرر بغض النظر عن بيئتها الحضارية . ففي كل مجتمع اولاد هم اكبر اخوتهم وآخرون هم اصغر اخوتهم ، واولاد وحيدون واولاد ينشأون بين عدد من الاخوة والاشقاء ، واولاد ضعاف ومرضى، وآخرون اقوياء نشيطون . ويصدق هذا ايضاً على العلاقات المتبادلة المختلفة بين الاباء والاولاد ، فهناك ابنـــاء مفضلون

وآخرون مهملون ، وابناء طيبون وابناء « غرباء » هم موضع شك دائم وتقويم مستمر . وحتى عندما يتصرف مختلف الاباء ضمن حدود سلطتهم التي ترسمها لهم الحضارة ، فمنهم من يكون محباً ودوداً متسامحاً ومنهم من يكون قاسياً يتلذذ بممارسة وظيفته التربوية في التهذيب الى اقصى حد . وتؤدي كل من هذه الحالات الى خلق نوع خاص من الخبرة الباكرة عند الفرد . فاذا تعرض افراد من مختلف المجتمعات متشابهون في الاساس ، لاوضاع عائلية متماثلة ، كانت النتيجة ظهور تشابه واضح بين المستويات العميقة في الاشكال المتكاملة لشخصياتهم .

ورغم ان الحالات والاوضاع العائلية التي ذكرناها آنفاً تؤدي عملها على ما يصح ان نسميه بالمستوى دون الحضاري ، فان المرات التي تظهر فيها حالة خاصة من هذه الحالات في مجتمع معين تتأثر بالعوامل الحضارية . وهكذا نجد انه اصعب كثيراً للزوجة ان تثبت سلطتها في مجتمع شديد الايمان بالسلطة الابوية منها في مجتمع امومي (Matriarchal) . ففي الحالات الاولى عليها ان تعمل ضد القواعد المرعية للعلاقات الزوجية وتتحدى كل انواع الضغط الاجتماعي ، ولا يتسنى ذلك الا لامرأة قوية جداً في طباعها او لامرأة ذات زوج ضعيف جداً ، وفي هذه الحالة الاخيرة باستطاعة اي امرأة ذات شخصية عادية في قوتها ان تسود في بيتها بمساعدة الضغوط الاجتماعية . ونجد ان معظم العائلات في كل مجتمع تقارب المعايير المقررة حضارياً في العلاقات

الشخصية المتبادلة بين افرادها . وبالتالي فان اكثر الاطفال الذين يتربون في مجتمع معين يتعرضون لظروف عائليـــة متشابهة فيخرجون منها بعدد كبير من العناصر المتشابهة حتى في اعمق المستويات من شخصياتهم . ويبدو ان عدداً كبيراً من المجتمعات تدعم هذا الاستنتاج ، ففي كل حالة منها يمكن التدليل عـــلى الترابط بين الانماط الحضارية للتنظيم العائلي ولتربية الاطفال من ناحية ، وبين نموذج الشخصية الاساسية في افراد المجتمع الكبار من ناحية اخرى .

وخلاصة القول انه يجب اعتبار الحضارة العامل السائد في تقرير نماذج الشخصية الاساسية لمختلف المجتمعات ، وفي وضع السلسلة المتدرجة لشخصيات المكانة التي تميز كل مجتمع. وعلينا ان نتذكر ان نماذج الشخصية الاساسية وشخصيات المكانة ، كانماط الحضارة التركيبية تمثل الطرز القائمة داخل بعض مجالات التنوع . ومن المشكوك فيه ان الشخصية الحقيقية لاي فرد يمكن ان تحقق كل النقاط في اي من هذه التجريدات . اما فيما يتعلق بتكوين الشخصيات الفردية فتقوم الحضـــارة بدورها كعامل من مجموعة عوامل تشمل ايضاً على امكانات الفرد المقررة فيسيولوجياً وعلى علاقاته بغيره من الافراد . ولا ريب ان هناك عوامل اخرى ، غـــير العوامل الحضارية ، تكون في بعض الحالات سبباً اساسياً في وضع اطار متكامل خاص للشخصية . وعلى كل يبدو ان العوامل الحضارية تسيطر في اكثر الحالات،

واننا لنجد ان الحضارة في كل المجتمعات تفسر شخصيات الافراد العاديين (Average) والطبيعيين (Normal) الذين يحافظون على استمرار المجتمع في عمله الاعتيادي . كما نجد في الوقت ذاته ان في كل المجتمعات افراداً شواذ تقع شخصياتهم خارج نطاق التنوع العادي في المجتمع . وبالرغم ان اسباب ظهور مثل هذه الشخصيات المنحرفة لم تفهم تماماً بعد ، فلا شك في ان بعضها ينشأ من مصادفات عرضية في البيئة الاولى والخبرة الباكرة . ولكننا ما زلنا نجهل الى اي مدى تتأثر بغير ذلك من العوامل المنبثقة عن الوراثة .

ولا يسعني في ختام هذا البحث الا ان اعترف بانني اشعر شعوراً قوياً بانني أشرت الى عدد من المشكلات لم استطع تقديم حلول لها ، كما انني ادرك الى اي حد اعتمدت على اساليب قد تبدو غير علمية لمن يعتبرون العلم شيئاً لا يمكن فصله عن المختبر والموازين . على ان الذين يبحثون في الحضارة والمجتمع والفرد والعلاقات المعقدة المتبادلة بين هذه الظواهر هم رواد ، ينبغي لهم ، كسائر الرواد ، ان يعتمدوا الاساليب البسيطة الجاهزة . فهم يعملون في المراكز النائية التي اقامها العلم على تخوم عالم جديد . ولم تكن اطول رحلاتهم الاستكشافية في عالم المجهول سوى نزهات قصيرة تركت مناطق شاسعة بلا تنقيب ، لكن سيتمكن الذين يأتون من بعدهم من وضع الخرائط والخطط بالاسلوب الذي يستلزمه العلم المضبوط الدقيق فيقطفون الثمار . اما الرواد فلا يستطيعون الا ان يغذّوا السير يحفزهم الاعتقاد بان المعرفة التي ستسلح الانسان لاحراز اعظم انتصاراته وهو : الانتصار على نفسه ، تكمن في ناحية من هذا الميدان الرحيب .



فهرس

ف. ب. (١٢١)

١٩٦٤

هذا الكتاب

يعالج عالم الانسان المعروف رالف لنتون في هذا الكتاب موضوع الاصول الحضارية للشخصية ، وهو موضوع اساسي في فهم الانسان لنفسه . وقد استفاد المؤلف في بحثه هذا من علمي النفس والاجتماع المتصلين اتصالاً وثيقاً بعلم الانسان . وهو يبين ترابط الفرد ومجتمعه وحضارته ، ويحلل مفهوم الحضارة ، ويظهر اثر الحضارة ومركز الانسان الاجتماعي في السلوك وانواع الشخصية الاساسية وغير الاساسية باسلوب سهل وعبارة رصينة يجعلان المادة في متناول القارىء العام . وقد حرص المؤلف على تحديد اصطلاحاته تحديداً واضحاً لا يدع مجالاً للغموض والابهام .

كتاب جدير بالقراءة

الثمن : ٣٠٠ ق.ل.